

*Min ḥūmat fandaq al-yahūdi ilā mallāḥ Fās al-jadīd.
Tajalliyyāt al-ḥudūr al-yahūdī fī al-mashhad al-ʿumrānī li-
madīnat Fās.*

من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد
تجليات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس

هشام الركيگ

جامعة القاضي عياض، مراكش

مقدمة

يدفع تأمل الأدبيات التاريخية إلى إدراك صعوبة اقتفاء آثار اليهود بفاس وتعقب ما تركوه من بصمات في عمران المدينة، من خلال الاستناد إلى ما ورد بشأنها من معلومات أقل ما يقال عنها إنها ضئيلة لا تشفي الغليل، ولا تتجاوز حد التلميح إلى عراقة استقرارهم بالمدينة، والإشارة باقتضاب إلى الأوامر السلطانية القاضية بنقلهم من مستقرهم الأول بفاس البالي إلى حي انفردوا بسكناه بفاس الجديد سمي بالملاح.¹ ويُضاف إلى ضئالة المعلومات هذه غياب الموضوعية والحياد، لعدم تخلص أصحاب هذه الأدبيات من الإحساس بالانتماء إلى الغالبية المسلمة المهيمنة على دواليب السلطة والمجتمع، وهما طرفان بالغا التأثير في حاضرة نعتها أبو عبيد الله البكري بأنها "أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق."² لقد بلغ هذا الإحساس حد الجهر

1. نتبنى في هذا المقال الصياغة الاصطلاحية للفظ الملاح كما أجاد في تبيانها شمعون ليشي في دراسة حملت عنوان: "الحارة والملاح: الكلمات، التاريخ والمؤسسة." لقد أوضح الباحث كيف أزاح الملاح وأبعد عن التداول طوبونيمات قديمة، لطالما زخرت بها المصادر التاريخية الوسيطة، من قبيل حارة اليهود ودرج اليهود وشارع اليهود وسوق اليهود، وكيف أن لا صلة للفظ باليهود، وأن لا مصداقية بالتالي للتفسيرات الغرائبية، والطريقة أحيانا، التي تحيط بأصله. فقبل أن يعني الحي الذي جرى فيه إسكان يهود فاس على عهد بني مرين، وقبل أن يعمم منذ ذلك الحين ليشمل كل حي يهودي مسور معزول ومحدث بمقتضى قرار سلطاني، كان على الأرجح اسم موضع بفاس الجديد يجمع فيه الملح ويخزن تمهيدا لتوزيعه على أسواق المدينة.

Simon Lévy, "Hāra et Mallah: les mots, l'histoire et l'institution (toponyme et histoire)," in *Histoire et linguistique*, Actes de la table ronde déroulée à Marrakech du 25 au 26 Mai 1990, Abdelahad Sebti éd. (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Rabat, 1992), 41-50.

2. أبو عبيد الله البكري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان لوفن وأندري فيري، ج. 2 (تونس: الدار العربية للكتاب، 1992)، 1331.



شكل رقم 1: تصميم فاس الجديد، ويظهر موقع الملاح بمحاذاة القصر الملكي وملحقاته.
المصدر: مفتشية المباني التاريخية والمواقع بفاس.

بالعداء لليهود، بل واستنزال اللعنات بهم كل مرة أتى ذكر أحد وجهائهم أو نقلت أخبار حوادث العنف التي طالت في أحيان عديدة محلات سكنائهم. ومن المعين ذاته نهلت المرويات العبرية، فراحت تسرد متونها بطريقة الحكيم الشعبي، وبمنظور ضيق لا يتعدى أفقه أسوار الملاح، يركز على المظلومية والذاتية.

ويصعب اعتبار الوضعية الراهنة لملاح فاس الجديد نهائية يمكن الركون إليها لاستقرار التشكيلة العمرانية التي كان عليها فيما مضى، وذلك لأسباب نجمها، من جهة، في تعدد وتنوع التقلبات التي طرأت على عمرانه، وفي فراغه من سكانه اليهود، من جهة أخرى، في فترات مختلفة، كان أغزرها أواسط القرن العشرين.³ لقد ترتب عن كل هذا تشويه واضح لكثير من معالم الحي زادتها حدة استحداثات البناء فيه من قبل أسر أخرى حلت مكان ساكنته الأصلية. لا ضير مع ذلك في المحاولة، وإن حملت في طياتها بعضاً من عدم الدقة وتخللتها البياضات أحيانا أو اكتفت بتقديم أنصاف أجوبة.

مستقر اليهود بفاس البالي

ننطلق من رواية أوردها ابن أبي زرع في سياق تأريخه لمدينة فاس وتنقيبه على ماضي الأدارسة، هذا نصها: "فاجتمع بها خلق كثير من اليهود ممن رغب في العافية، فأنزلهم (إدريس الثاني) بناحية أغلان إلى باب حصن سعدون."⁴ ويبدو أن القرار لم يكن دون مقابل، فقد ربطته الرواية بالجزية التي كان على من اختار الإقامة بالمدينة الناشئة تسديدها إلى خزينة الإمارة الإدريسية جزاء منحه الأمان والحماية بموجب عقد الذمة من جهة، وجزاء تعميره على أرض لا يملكها من جهة ثانية.⁵ إن إقطاع الأرض في نظير المال كان مبدأ معمولاً به في فاس منذ التأسيس، ولم يختص به اليهود لوحدهم، بل إن في المدينة حومات كاملة كان الناس يؤدون الجزاء عن الدور والحوانيت والمصانع التي بنوا بها، مثل جزاء ابن عامر وجزاء ابن برقوقة

3. شكلت التغيرات التي عرفها الحي خلال الفترة الاستعمارية موضوعاً للدراسة التالية:

Susan Gilson Miller et al., "Inscribing Minority Space in the Islamic City: The Jewish Quarter of Fez (1438-1912)," *Journal of the Society of Architectural Historians* 3 (2001): 310-327.

4. ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور ج. 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، 55.

5. ابن أبي زرع، الأئيس المطرب، 55.

وجزاء ابن زكون. وقد جاء في زهرة الآس أن إدريس الثاني نادى في الناس أن: "كل من بنى موضعا واغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبة الله تعالى، فيظهر من هذا، والله أعلم، أن من بنى شيئا بعد تمام السور المذكور إنما يكون باستئجار الأرض، وهو سبب الجزاء في بعض جهاتها."⁶ وعليه، يكون احتضان إدريس الثاني لهجرة اليهود دليلا على قبوله ضمينا مجاورتهم والتعايش معهم في المدينة الواحدة، فهو بهذا القرار ساوى بينهم ومن وفد إليه من الأسر والقبائل العربية، بعدما غدت فاس قبلة لكثير من المهجرات، ولا سيما من القيروان ومدن الأندلس أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين.⁷

وتتضمن الرواية معطى آخر من شأنه أن يسهم في ضبط موقع الحي المخصص لليهود زمان تأسيس المدينة. إن إعلان، التي أشار إليها ابن أبي زرع، هي حيز عمراني يمتد إلى الشمال الغربي من عدوة القرويين حتى يصل الباب المعروف حاليا باسم باب الكيسة (باب حصن سعدون سابقا)، وجنوبا حتى يشارف الأسواق التجارية المتاخمة لمسجد الأشراف (الضريح الإدريسي) وجامع القرويين.⁸ وعليه، يكون توطين إعلان مكان حومتي البلدة وفندق اليهودي. وقد خلدت هذه الحومة الأخيرة عبر دلالة اسمها ذكرى سكانها الأولين. فمن المعلوم أن للتسمية علاقة متينة بالمجال، وأن الأماكن غالبا ما ترجع أصول أسمائها إلى واقع محلي أثر فيها، وهو ما يرجح فكرة احتضان الحومة لفندق في ملكية تاجر يهودي استغله لخزن بضائعه أو عرضها، اشتهر وذاع صيته حتى أطلق اسمه على الحي بأكمله.⁹ كما لا نستبعد، في سياق متصل، قدم وعراقة المقبرة المخصصة إلى عهد قريب لدفن

6. علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور (الرباط: دار المنصور، 1977): 55؛ انظر أيضا بشأن مفهوم الجزاء بالمغرب الوسيط المقال الآتي:

Edouard Michaux-Bellaire, "La Ghelsa et le Gza," *Revue du Monde Musulman* 23 (1911): 197-248.

7. أحمد الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، ج. 1 (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1956)، 71-73.

8. أشار ابن الزيات عرضا في التشوف إلى حمام بفاس حمل اسم حمام إعلان، وذلك في معرض ترجمته لعبد الحميد بن صالح المسكوري. ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، 198.

9. عثرت كاترين كامبزار أمهان على شواهد مادية توثق لهذا المبنى، هي عبارة عن أفاريز خشبية مزخرفة تقبع إلى الآن بمستودعات متحف البطحاء بفاس. وعلى الرغم من محاولتنا المتكررة، فقد تعذر علينا ويا للأسف العثور على هذه الأفاريز، انظر:

Catherine Cambazard-Amahan, *Le décor sur bois dans l'architecture de Fès* (Paris: C.N.R.S., 1989), 40.

من مات من اليهود خارج المدينة. فبفضل إشارات دقيقة ومتواترة تضمنها كتاب التواريخ،¹⁰ أمكن توطئ هذا الفضاء الجائزي شمال باب الكيسة: إن موقعه البعيد نسبياً عن الملاح-المشيد لاحقاً بفاس الجديد-يعضد فرضية اقتران مقبرة باب الكيسة بأقدم حي أقطع لليهود بالمدينة-حومة فندق اليهودي لاحقاً-بحكم أن لا شيء يفصل بينهما سوى أسوار فاس البالي الشمالية.

والواقع أن المنع لم يطل إقامة اليهود خارج الحيز المخصص لهم، إذ توجد قرائن عديدة تثبت عيشهم جنباً إلى جنب مع المسلمين دونما تمييز. ومن أولها ما تتضمنه أسطورة أرخت بظلالها على نشأة المدينة، فحواها أن رجلاً من اليهود كان يحتفر أساس بيته في موضع بالقرب من قنطرة عزيلة، فوجد تمثالاً من رخام على صورة جارية منقوش على صدرها عبارة: "هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم حرب، فأقيم موضعه بيعة للعبادة."¹¹ وعلى الرغم من أننا لا نود تحميل الأسطورة أكثر مما يمكن أن تحتتمل ما دامت أحداثها لا تصمد أمام النقد الحديث، فإن في متنها اعتراف ضمني بحضور العنصر اليهودي بالمشهد العمراني لمدينة فاس منذ أيام التأسيس الأولى، وإقرار مبطن بعراقة استقراره في نطاق أسوارها.¹² أما بعض ما جاء فيها فيحتوي على تفصيل يشد الانتباه، إذ أنها تتقبل دون اعتراض فكرة بناء يهودي لمسكنه خارج محيط أغلان الذي أقطعه إدريس الثاني للمسلمين.¹³ وبغض النظر عن درجة قرب أحداث الأسطورة من الواقع التاريخي، فهي تبقى إبداعاً يجسد كيف يستحضر الفاسيون ويتصورون بدايات مدينتهم وتركيبها السكانية الأولى.¹⁴

10. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس، ترجمة عبد العزيز شهر (تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمىر، 2002)، 92.

11. ابن أبي زرع، الأئيس المطرب، 46.

12. يتفق مضمون الأسطورة مع جاء في نص عبري أورده الربى أبنر السرفاتي: "إذا بحثت الآن عن زمن استقرار اليهود بفاس، سأجد في مقدمة عاروخ برهون علاقة هذه الإشارة كما يلي: كان لإلداد الداني بفاس مع يهودا بن قريش سنة 4650 (277 هـ/890 م) وهو ما يمكننا من الاستنتاج أن طائفة يهودية كانت بفاس منذ 90 سنة بعد بناء المدينة." ي. د. سباح، "محاسن فاس أو أنساب فاس للربى أبنر السرفاتي"، ترجمة محمد الغراب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، 5 (2002)، 159.

13. لا دليل يثبت وجود قنطرة عزيلة المشار إليها بناحية أغلان، مادام لم يستدل إلى الآن عن موقعها في طوبوغرافيا المدينة.

14. محمد حبان، "الأسباب والأساطير المرتبطة بتأسيس المدن الإسلامية بالمغرب"، ضمن المدينة في تاريخ المغرب العربي، من أعمال الندوة المنظمة بالدار البيضاء من 24 إلى 26 نونبر 1988 (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيكة، 1990)، 70-77.

ثاني هذه القرائن ما أورده الجزنائي في جني زهرة الآس بشأن امتلاك اليهود لكثير من العقارات بمحيط جامع القرويين جرت إزالتها سنة 529هـ/1134م،¹⁵ في إطار التوسعة التي أمر بتنفيذها أمير المرابطين علي بن يوسف بعدما اشتكى أهل المدينة من ضيقه وعجزه عن استيعاب كثرة مصليه، وخصوصا عند أيام الجمع.¹⁶ وليس من المستبعد أن تكون غالبية هذه الأملاك عبارة عن حوانيت ومحلات، وأنها تشكل امتدادا للسوق الذي نقل الحسن الوزان خبر محاذاته لجامع القرويين، فتابع اليهود ترددهم عليه وممارسة أنشطتهم التجارية بفضائه، حتى بعد ترحيلهم إلى فاس الجديد.¹⁷ ويعزز افتراضنا هذا فكرة وجود نشاط يهودي في قلب فاس النابض ومركز جذبها التجاري، حيث القيسارية والأسواق الكبرى، لعله كان سببا في امتعاض أبي عبيد الله البكري من تكاثر أعدادهم بالمدينة وهيمتهم على اقتصادها،¹⁸ ولعله المقصود مما سطره صاحب كتاب الاستبصار بخصوصهم حين كتب: ”هم تجار أهل هذه البلاد كلها وأغنياؤها وخاصة بمدينة فاس، فإني عاينت منهم من يقال عنه عنده المال الممدود رجالا كثيرين.“¹⁹

وبينما كان الجزنائي واضحا في تحديد موضع هذه العقارات عبر الإشارة إلى مجاورتها لجامع القرويين من جهة جدار القبلة، فإن الأبحاث الأثرية التي بوشرت بالموقع منذ أواسط القرن الماضي لم تكشف عن أي أثر يمكن نسبته إلى اليهود. لقد مال الفرنسي هنري تيراس (H. Terrasse)، في دراسته المستفيضة حول الجامع ومراحل تطوره المعماري والزخرفي، إلى توطين هذه الأملاك اليهودية في الموضع الذي شيدت عليه البلاطات الثلاثة الموازية لجدار القبلة ومصلى الجنائز (جامع الكنايز) دون الإدلاء بأي دليل يستند إليه في تعزيز افتراضه،²⁰ بينما لم تسفر حفريات سنة 2006 التي همت جزءا يسيرا من أرضية قاعة الصلاة (291,60 م²) على

15. الجزنائي، جني زهرة الآس، 67-68.

16. حسب ما زودنا به ابن أبي زرع، فقد سعى بعض أصحاب هذه العقارات إلى عرقله مشروع التوسعة، لكن الفقهاء المكلفين بتنفيذ الأشغال وتبعتها، اقتدوا بالخليفة عمر بن الخطاب، حينما زاد في المسجد الحرام بمكة، وأصدروا بالتالي فتوى بتقويم الأمكنة وإرغام أصحابها على تسلم التعويضات. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 73-74.

17. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 1 (الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 283.

18. البكري، كتاب المسالك، 1331.

19. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985)، 201.

20. Henri Terrasse, *La mosquée al-Qarwiyyin à Fès* (Paris: Éditions Klincksieck, 1968), 19.

مستوى استقرار يؤرخ لفترة سابقة عن أعمال التوسعة المرابطية، إذ هو عبارة عن أنقاض بنائيتين سكنيتين يصعب الربط بينها وبين ما قيل عن استقرار يهودي بجوار جامع القرويين.²¹ ونرى مع ذلك وجوب الحذر في التعامل مع هذه المعطيات التي استجدت، فلعل عقارات اليهود التي ذكرها الجزنائي مطمورة تحت أجزاء أخرى من أرضية جامع القرويين، إلا أن قيمته الدينية ومكانته الاعتبارية ربما تحولان دون التنقيب الأثري المنسق الممكن برمجته في مواقع ومباني تاريخية أخرى.

ويطالعنا كتاب يحاس فاس بخبر قدوم موسى بن ميمون (ت. 600هـ/1204م) إلى فاس ونزوله في الجزء الغربي من المدينة بالطالعة الكبيرة، وتحديدًا بدار المكنانة الكائنة قبالة المدرسة البوعنانية. ومعلوم أن لهذه الدار مكانتها الخاصة في قلوب اليهود المغاربة، إذ تحولت مع مرور الوقت إلى مزار يحجون إليه تيمنا بنواقيس من نحاس متصلة بالساعة المائية التي يُنسب فضل صناعتها بل وتأمين اشتغالها أيضا إلى ابن ميمون. لقد جاء في يحاس فاس أن ابن ميمون قد "سكن فاس البالي بيت مشهور، وكان لهذا البيت ثلاثة عشر نافذة، ثبت أسفل كل منها جرس، وما يزال يعرف إلى اليوم بدار النوافذ الثلاثة عشر."²² كما رصد بروسبير ريكار (Prosper Ricard)، في عشرينيات القرن الماضي، آثار شموع التبرك بادية على جدران إحدى الغرف الواقعة بسطح هذه البناية التاريخية.²³ بيد أن عبد الهادي التازي شكك في مصداقية هذا الخبر، إذ راعه البون الزمني الشاسع بين مقام ابن ميمون بفاس—أواخر عهد الخليفة الموحد عبد المومن بن علي (ت. 558هـ/1163م) وفي السنوات الأولى من حكم خلفه يوسف أبي يعقوب (ت. 580هـ/1184م)—وبين تشييد النواقيس المتصلة بالساعة المائية التي تعتبر من أعمال السلطان المريني أبي عنان فارس عام 758هـ/1357م.²⁴ وفي محاولة لدحض ما وقع تناسله من شائعات حول سكن ابن ميمون بدار المكنانة، أورد الباحث معلومات مدققة عن الآلة المذكورة وطريقة اشتغالها

21. اشتملت أنقاض المنزلين المذكورين على بقايا زخرفة كتابية ذات حمولة دينية (سورة الإخلاص، آية رقم 2)، انظر:

Ahmad Saleh Ettahiri, "A l'aube de la ville de Fès. Découvertes sous la mosquée al-Qarawiyyin," *Dossiers de l'Archéologie* 365 (2014): 42-49.

22. سباح، يحاس فاس، 161.

23. Prosper Ricard, "L'horloge de la medersa Bou Inania," *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord* (1924): 2.

24. عبد الهادي التازي، "ابن ميمون بفاس،" حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1986)، 211.

وصانعها المؤقت أبي الحسن علي بن أحمد التلمساني، وذلك نقلا عما رواه صاحب جني زهرة الآس جاء فيها: ”صنع مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله منجانة بطيقان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة...، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتفتح طاق، وذلك في أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى عام ثمانية وخمسين وسبعمئة على يد مؤقته علي بن أحمد التلمساني المعدل.“²⁵ وإذا كنا نقدر مدى حرص عبد الهادي التازي على التصدي لمغالطات لا يقدم أصحابها دلائل لإثباتها، فإننا نتحفظ أيضا على تشكيكه في أصل الخبر ذاته ونسمح لأنفسنا بالتماس بخارج لناقله الربى أبنر السرفاتي، وذلك اعتمادا على ما يتضمنه ملف المدرسة البوعنانية الذي ما انفك يزداد سمكا من حيث الكم والكيف. إن حفريات منتصف التسعينيات من القرن الماضي قد حالفها الحظ في العثور على مستويين للاستقرار أسفل قاعة الصلاة و صحن المدرسة. ويتشكل الأول من بقايا بناية فخمة، أميرية الطراز والتصميم، ويستدل على ذلك برحابة مساحتها ومتانة سواربها ونظام قنواتها المائية شديد التعقيد.²⁶ أما المستوى الثاني، فيقوم على أنقاض البناية الأولى، في هيئة عمارة عادية غير زاهية ولم يتبق منها سوى أرضية من حجر يغطي القسم الأكبر من المساحة التي احتلها استقبالا صحن المدرسة.²⁷ وقد أكد المشرفون على هذه الحفريات تطابق مكتشفاتهم الأثرية مع تسميتين وردتا في المصادر التاريخية كلما جاء الحديث عن موضع بناء المدرسة البوعنانية:

- القصر: أشار إليه الرحالة المغربي ابن بطوطة في معرض مدحه أبي عنان فارس المريني وإشادته بمنجزاته العمرانية، إذ وصفه بما يأتي: ”وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قسبة فاس ولا نظير لها في المعمور اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن موضع.“²⁸

25. الجزنائي، جني زهرة الآس، 53.

26. عشر على هذين المستويين عن طريق الصدفة، لما عمد طلبة من المدرسة المحمدية للمهندسين سنة 1994 إلى فتح استبارات بالمدرسة البوعنانية للتأكد من متانة أسسها، فأبانت حفرياتهم عن آثار متعددة: بقايا صهريج، وعن أجزاء من جدران وأرضيات وعن كثير من القطع الخزفية، فأقام المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث إثر ذلك حفرة إنقاذ سنة 2000، لا زلنا ننتظر نتائجها إلى اليوم.

27. Abdallah Filli, "La céramique mérinide de la Medersa al-Bu'inaniya de Fès," *Transfertna* 4 (2000): 261.

28. Ibn Battouta, *Voyages d'Ibn Battûta*, traduit par Charles Defrémery et Beniamino Raffaello Sanguinetti (Paris: Éditions Anthropos, 1979), 351.

- سوق القصر: وهي تسمية استمر استعمالها دلالة على جزء من حي الطالعة إلى غاية العهد العلوي الأول.²⁹

إن في هاتين التسميتين تلخيصا مصغرا لتاريخ مكان يوثق لما جريات عمران تعاقب على استيطان ترابه من عصر المرابطين إلى غاية تأسيس حي الطالعة أيام المرينيين: قصر بناه المرابطون غربي المدينة فانهدم ضمن ما أمر عبد المؤمن بن علي بتخريبه أثناء دخوله فاس، ثم بني على أنقاضه سوقا ربط بين قصبة بوجلود (أبي الجنود)، قاعدة الموحدين بالمدينة ومعسكر أجنادهم، وعدوة القرويين، وسط المدينة وقلبها النابض. إن ما يعنينا من هذه التفاصيل ذات الصبغتين الطوبونيمية والأركيولوجية، هو محاولة إبراز التغييرات العمرانية الطارئة على حي الطالعة قبل إعادة هيكلته أيام المرينيين، وهي تغييرات لا يخامرنا شك في أن الربّي أبنر السرفاتي كان واعيا بها، إذ هو من أبناء فاس وله معرفة بتواريخ مدينته وأخبار جماعته.³⁰ وبناء عليه، من المحتمل أن يكون هذا الإخباري قد سمى في حولياته منزل ابن ميمون بالاسم الرائج على عهده، أي "دار المگانة"، لشهرة هذا الاسم وشيوع تداوله بين الناس، وربما لضيق النعت الذي عُرِف به البناء الأصلي الكائن فيما مضى بسوق القصر القديم.

لقد سعينا من خلال النّيش في ذاكرة فاس البالي إلى معرفة ملامح الاستقرار اليهودي بالمدينة خلال الفترة السابقة لتأسيس الملاح، حيث لم يبلغ العزل السكني مداه بعد، إذ ظل اليهود يقطنون جنبا إلى جنب مع المسلمين، يجاورونهم ويخالطونهم في الحياة اليومية، وإن تجمعوا بإيعاز من السلطة السياسية وإرادة منهم كذلك³¹ في

29. Idris S. Allouche, "Un plan de canalisations des Fès au temps de Mawlay Ismail d'après un texte inédit avec une étude succincte sur la corporation des *Kwadsiya*," *Hespèris* XVIII (1934): 60.

30. أُلّف كتابه يحاس فاس سنة 1879 بناء على طلب من الكاتب العام للرابطة اليهودية العالمية.

31. الحقيقة أن مدن المسلمين بدت للسكانين بها من اليهود بيئة مواتية، لوجود أوجه التقارب بين الديانتين في معتقدات وعاتات كثيرة، على نحو الإيمان بوحدانية الله ورفض التجسيم وممارسة طقس الختان وتطبيق قانون التحريم على بعض أنواع الأطعمة. إنها بذلك تحالف المدن الأوروبية التي ناصبتهم العداء بها أصدرته خلال العصر الوسيط من قوانين مناهضة لهم، وبها تزخر به كنائسها وساحاتها العمومية من تماثيل وصلبان، وبها تحتويه أسواقها من مأكولات محظور تناولها في الديانة اليهودية. بهذا الفهم إذن يمكن استيعاب احتفاء يهود مدينة البندقية الإيطالية سنويا بحدث تأسيس الكيتو سنة 1516، وتخليدهم لذكرى انتقاهم للعيش خلف أسواره في مأمن من تعسف الغالبية المسيحية واضطهادها. وبه أيضا يمكن تفسير التحوير الذي عرفه مصطلح الكيتو من تسمية موضع قديم للسباكة بمدينة البندقية جرى إنشاء الحي اليهودي على أرضه إلى الطلاق والفراق، وهو المعنى الذي يستفاد من كلمة غيت العبرية.

Georges Jehel et Philippe Racinet, *La ville médiévale de l'Occident chrétien à l'Orient musulman V^e-XI^e siècle* (Paris: Éditions Armand Colin, 1996), 424.

حي شكلوا غالبية، وهو المعروف حاليا بحومة فندق اليهودي. ونسترجع أيضا ما ذكرناه بشأن من اختار العيش خارج هذا الحي، حتى لو اقتصر الأمر على حالات فريدة يصعب توضيح ملاحظاتها دون الاستناد إلى ما تتضمنه المصادر التاريخية من معطيات نصية، وعلى ما تجود به الحفريات الأثرية من شواهد مادية. وقد تعرضت هذه الصورة للاهتزاز أيام سلاطين بني مرين، بظهور معطيات جديدة استدعت نقل اليهود إلى حي مسور معزول بفاس الجديد. فماذا عساها أن تكون هذه المعطيات التي غيرت المشهد العمراني بالمدينة، بل وبكثير من حواضر المغرب في وقت لاحق؟

نشأة ملاح فاس الجديد، بين التصورات والحقائق

زودنا ابن أبي زرع بخبر يؤرخ به لقيام العامة بفاس على اليهود في ثاني شوال عام 674هـ/21 مارس 1276م بسبب "جارية مسلمة ادعت أن أحد اليهود افتضها قهرا في داره فقتل منهم أربعة عشر رجلا ولولا ما اتصل الخبر بأمر المسلمين (يعقوب بن عبد الحق ت. 685هـ/1286م) وركب بنفسه في جماعة من حشمه وأمر بطرد العامة عن مواضع اليهود وكفهم عنها لم يبق منهم أحد."³² ثم ربط ابن أبي زرع ضمينا بين أحداث العنف هذه والنقل القسري لليهود من مستقرهم الأول بالمدينة، إذ كتب مستطردا في كتابه ما يلي: "وفي اليوم الثالث من شوال المذكور شرع أمير المسلمين في تأسيس المدينة البيضاء وحضرته الغراء وبنائها على وادي فاس المحروسة."³³ ويقدم صاحب مخطوط "قضية المهاجرين المسمين اليوم بالبلديين" من جهته أيضا شهادة مطابقة جدا لشهادة ابن أبي زرع، لكنه أغناها بمعطين قيمين: أولهما اضطرار فئة عريضة من يهود فاس إلى ترك ديارها الأصلية واعتناق الإسلام جراء ضغوط مورست عليها إلى درجة الإكراه. وثانيهما أن يعقوب بن عبد الحق هو فعلا من اتخذ قرار ترحيل اليهود في اتجاه فاس الجديد، إذ أورد صاحب المخطوط في هذا الصدد ما يلي: "وأمر من نجا منهم بسكنى فاس الجديد وأخرجهم من فاس القديم، ثم أن من نجا منهم سمى من أسلم بالبلديين."³⁴ ويستفاد من إحدى النوازل المنشورة في المعيار المغرب أن مرد العنف

32. علي بن أبي زرع، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط: دار المنصور، 1972)، 160-161.

33. نفسه، 161.

34. مؤلف مجهول، قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، تحقيق محمد فتحة (الرباط: دار أبي رقرق، 2004)، 55.

الذي استهدف به العامة جيرانهم، اتهمهم بترويح الخمر بين المسلمين غداة عيد الفطر، وذلك على الرغم من اعتراض الفقهاء الذين رأوا في الأمر وجها من أوجه الفساد وانتقاضا لعقد الذمة يستوجب الرد عليه بحزم شديد.³⁵ وجدير بالذكر أن هذه المعلومة وردت في سياق مشاركة النوازلي أحمد بن يحيى الونشريسي فقهاء عصره النقاش بشأن شرعية دور عبادة اليهود بأراضي توات، إذ زكى رأيه الرافض لإحداثها أو ترميمها بفتوى تولدت من رحم الأحداث التي نحن بصدد دراستها، وهذا مقتطف منها:

”وما أشار إليه الجواب أن شيوخ المغرب أفتوا أنهم- (أي اليهود) لا ذمة لهم فيما دون هذا (بناء دور العبادة أو ترميمها)، هو بيعهم الخمر للمسلمين وتمالؤهم عليه بعد النهي عنه، اتفق ذلك في أيام يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني فقتلوا لذلك وسبوا ببلاد بني مرين كلها.“³⁶

ويؤخذ من كتاب وصف إفريقيا أنه من أعمال أبي سعيد عثمان (ت. 731هـ/1331م)، إذ عزا الحسن الوزان دواعي بنائه إلى عجز السلطة السياسية عن ضمان أمن اليهود وسلامة ممتلكاتهم في فاس القديم، بعد تكرار حالات الاعتداء عليهم زمن الفتن:

”ويشغل اليهود في أيامنا هذه جزء المدينة الذي كان مقاما قديما لحرس الرماة. وكانت مساكن اليهود قبل ذلك في المدينة القديمة، فكان المسلمون ينهبون أمتعتهم كلما مات ملك، فلما ولي الملك أبو سعيد نقلهم من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة.“³⁷

أما المصادر العبرية، فتكاد تنفرد بخبرين لا يخلوان من أهمية، ويؤرخ أولهما لبناء الحي بسنة 841هـ/1438م، بدليل أنه ورد في كتاب التواريخ ما يلي:

35. عن دور أهل الذمة في انتشار مجالس الخانات بالمدن العربية الإسلامية، انظر: سليمان حرياتي، الخمر ووظاهرة انتشار الخانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي (دمشق: دار الحصاد، 1996)، 115-130.
36. أحمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي ومجموعة من الفقهاء، ج. 2 (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981)، 250.
37. الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، 283-284.

”طلعوا اليهود للملاح سنة 5198 لبدء الخليقة من الدروب الي ففاس البالي، وثبت لي إنه بخط يد أستاذنا ومولانا الربان سعديا بن دنان. وطردت طائفة فاس لكثرة ذنوبنا وأخطائنا سنة 5198 لبدء الخليقة، وكان جلاء مرا وسريعا لإسرائيل. طردوا من المدينة المسماة فاس البالي، وهاجرت عائلات قليلة وبنت الملاح.“³⁸

ويعلل الخبر الثاني سبب البناء بتسلل جماعة من اليهود ليلا إلى الجامع الكبير لمدينة فاس-لعله جامع القرويين-وبشربهم الخمر بصحنه حتى مطلع الفجر، في انتهاك صريح لحرمة أبرز صرح ديني بالمدينة، وذلك بالعبارات الآتية:

”اجتمعوا وساروا حتى دخلوا الجامع الكبير، وسدوا نبع الماء بالجامع. وملؤوا مجاري الرخام الذي تجري فيها المياه بالخمر، و(أمضوا) الليلة (يشربون الخمر حتى ثملوا). وعند الفجر، انسحبوا من ذلك المكان، وبقي هناك أحد اليهود ثملا هاجعا. وجاء المسلمون وأخرجوه من هناك، وقتلوا كل اليهود الذكور الذين وجدوا...“³⁹

وطغت أيضا إشكالية تأسيس ملاح فاس على الأبحاث ذات الصلة بتاريخ المدينة ويهودها، فحاول أصحابها جاهدين تقديم إجابات بغية تفسيرها،⁴⁰ وأجمعوا على استبعاد نقل اليهود في سنة 674هـ/1276م إلى فاس الجديد، ثم خلصوا إلى عدم صحة نسبة الحي تاريخيا إلى يعقوب بن عبد الحق، مستندين في استدلالهم إلى إشارات نصية وردت عند كل من ابن خلدون والجغرافي المشرقي ابن فضل الله العمري،⁴¹

38. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 7.

39. نفسه، 8.

40. انظر الدراسات التالية: روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)؛ عبد العزيز الخليلي، ”حول مسألة بناء الملاحات بالمغرب“، دار النباة 4 (1987): 28-121؛ 5 (1988): 30-41.

Henri Bressolette et Jean Delarozière, “Fès Jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XX^{ème} siècle,” *Hespéris Tamuda XX-XXI* (1982-83): 245-319. Henri Bressolette, “Naissance et évolution d’une ville marocaine,” *Hespéris Tamuda IV* (1963): 227-229. Maurice Gaudefroy-Demombynes, “Marocain mellah,” *Journal Asiatique* (1914): 651-658. Mohammed Kenbib, “Juifs dans une cité sainte de l’Islam,” in *Fès Médiévale: entre légende et histoire, un carrefour de l’Orient à l’apogée d’un rêve, dir. Mohamed Mezzine*, 166-175; Mohammed Mezzine, “Le sacré dans une cité maghrébine le cas de Fès au temps du maraboutisme,” *Revue de la Faculté des Lettres et Sciences Humaine Dhar el Mahraz Fès* 9 (1994): 45-53.

41. عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج. 7 (بيروت: دار الكتاب اللبنانية، 1959)، 654-653؛ شهاب الدين بن فضل الله العمري، مسالك=

وتشدد جميعها على أن الملاح قد استمد تسميته من موقع بفاس الجديد وأنه لا صلة له بتاتا باليهود، بل كان موضعه في سنة 763هـ/1361م معسكرا لجند النصارى العاملين في الجيش المريني، ثم صار حيا من أحياء فاس الجديد يحمل اسم "حمص"، حيث كان يقيم الرماة الأندلسيون.⁴² وقد رأى داوود كوركوس (David Corcos)، أنه من الأنسب اعتماد السنة التي روجت لها الرواية العبرية، على أساس أن إخراج اليهود من فاس البالي هو من تداعيات ضجة رافقت اكتشاف تابوت قيل إنه لإدريس الثاني ظل محفوظا بكيفية خارقة للعادة سنة 841هـ/1437م—وهو المتوفى سنة 213هـ/828م—في الحائط الشرقي الأيسر من جامع الشرفاء.⁴³ وبما أن هذا الصرح الديني أضحى ضريحا ومحجا لباني مدينة فاس الذي ارتقى إلى مرتبة الإمام وولي الله والقطب الصالح، فقد كان طبيعيا، حسب ما أورده داوود كوركوس، أن يحاط منذئذ بحزام واق أو حرم يمنع على غير المسلمين الدخول إليه، فكيف بالأحرى الاستمرار في السكن بجواره وعلى مقربة ممن انحدروا من صلبه.⁴⁴

ويتضح أن لهذا النقاش أهميته، لأنه يعكس باللموس مدى الاختلاف الموجود بين المؤرخين القدامى والمحدثين في شأن التاريخ الدقيق لتأسيس الملاح، وأيضا حول دواعي ترحيل اليهود إلى فضائه. بيد أنه من الممكن الاحتفاظ من هذا النقاش بستتين مفصليتين هما:

- الأولى هي سنة 764هـ/1276م، وتبدو بمثابة نقطة البداية الحقيقية لمرحلة التأسيس، إذ كان من مضاعفات ما حل باليهود جراء قيام العامة عليهم، صدور

=الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، ج. 4 (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، 2001)، 111.

42. يعتقد لويس ماسينيون أن تحول موضع الملاح إلى معسكر لجند النصارى لم يتم إلا بعد حل فرقة الرماة الإشبيليين ما بين سنة 710هـ/1310م وسنة 726هـ/1325م.

Louis Massignon, *Le Maroc dans les premières années du XVI^{ème} siècle (Tableau géographique d'après Léon L'Africain)* (Alger: pub. Mémoire de la Société Historique Algérienne, 1906), 227.

43. جاء في سلوة الأنفاس أن موضع دفن إدريس الثاني "لم يكن يعرف على سبيل القطع واليقين حتى اختبر أساس حائط القبلة من الجانب الأيسر ليصلح، وذلك في رجب عام أحد وأربعين وثمانمئة، فعثر حينئذ على قبره وجسده، ووجد اللحد قد بلى فلم يبق منه إلا القليل، والجسد المرحوم باقيا على حاله لم يتغير، ولم يكن للأرض عليه من سبيل، فكان ذلك من أعظم كراماته، وأسنى باهر آياته. وكان بين وفاته وظهور جسده كما ذكر ستائة عام وثمانية وعشرون عاما." محمد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق محمد الكتاني وآخرين، ج. 1 (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2004)، 81-82.

44. "Les Juifs du Maroc et leurs Mellahs," in *Studies in the history of the Jews of Morocco*, David Corcos, ed. (Jerusalem: Rubin Mass, 1976), 74-75.

قرار يقضي بترحيلهم من مواقع سكناهم الأولى بفاس البالي، وذلك بعد قرون من العيش المشترك جنبا إلى جنب مع المسلمين. لقد أدرك يعقوب بن عبد الحق صعوبة ضمان أمن اليهود وسلامة ممتلكاتهم أمام حدة العنف المادي الذي استهدفهم وأن تدخله الشخصي لإرجاع الأمن إلى نصابه أصبح أمرا لا مناص منه. ومن ثم كان القرار الذي اتخذ في اليوم اللاحق لهذه الأحداث الدامية هو الشروع في تأسيس المدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديد. وأوحى تزامن هذين الحدثين إلى عدد من المؤرخين أن يكون بناء الملاح قد تم خلال السنة الأولى لتأسيس فاس الجديد. وفي اعتقادنا أن تنفيذ هذا الأمر قد تأخر زنا طويلا لسببين رئيسيين: الأول هو اعتراض اليهود على قرار ترحيلهم بعيدا عن دور قرارهم ومواقع رزقهم وعبادتهم وحملهم بالتالي على الاستقرار في معسكر سابق للجند بات مهجورا ويفتقر لأبسط مقومات الحياة المدنية.⁴⁵ والسبب الثاني هو ضخامة المنشآت المعمارية بالمدينة الجديدة التي أعطيت لها دون شك الأولوية،⁴⁶ واستلزمت بطبيعة الحال إمكانات وموارد مالية ثقيلة.⁴⁷ لقد اندرج تأسيس فاس الجديد في سياق رؤية شمولية استهدفت تعديل ما اعوج من خطط المدينة نتيجة لنموها العمراني واتخاذها عاصمة للبلاد من جديد بدلا لحاضرة مراكش. والظاهر أنها ضاقت بالقبائل الزناتية التي اختارت الاستقرار بالمدينة، وبتعاقب الهجرات الأندلسية عليها إثر سقوط المدن والقرى الإسلامية تباعا في أيادي الملوك الإسبان بعد هزيمة العقاب وتواتر حروب الاسترداد، وهذا فضلا عن تضخم حجم المخزن المريني الذي استلم تركة ثقيلة من سلفه الموحدي، فكان لزاما على السلطة، والحالة هذه، المبادرة إلى اتخاذ قرارات حاسمة في مجال العمران لمعالجة هذا الأمر، وخصوصا بعد بروز بوادر التذمر في أوساط أهل فاس، وفي صفوف الأشراف والعلماء أكثر من غيرهم.⁴⁸ ويشهد بذلك ما نجده مسطورا في

45. لعل تعليق أحد أخبار فاس على هذا القرار بأنه "كان منفي مرا ومريعا" يلخص موقف أبناء جماعته منه. سباح، بحاس فاس، 169.

46. لمزيد من التوضيح، راجع مقالنا التالي:

Hicham Rguig, "Quand Fès inventait le Mellah," in *Maroc Médiéval, un empire de l'Afrique à l'Espagne. Catalogue de l'exposition présentée au Musée du Louvre du 17 octobre 2014 au 19 janvier 2015*. Sous la direction de Yannick Lintz et Bahija Simou. 452-454. Paris: Musée du Louvre, 2014.

47. "ويوجد الآن في هذا المكان (فاس الجديد) عدد من الجوامع وحمامات جميلة جدا كلف تشييدها نفقات باهظة." الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، 283.

48. تشكك أشراف فاس في شرعية المرينيين جراء وصولهم إلى الحكم في ظل غياب دعوة خاصة بهم، بالمفهوم الخلدوني للدعوة كمقوم أساسي لنجاح أي عصبية في الظفر بالحكم والاستمرار فيه.

Mohammed Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age* (Paris: Éditions Maisonneuve & Larose, 1986).

الذخيرة السنية عن قرار أصدره يعقوب بن عبد الحق، قبل اتخاذه قرار تأسيس فاس الجديد بخمسة عشر سنة، وتحديدًا في عام 659هـ/1261م، ونص فيه على القيام بجلاء الميليشيا المسيحية عن المدينة: ”وأخرج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس وبنى لهم حظيرة بخارج المدينة ورفع أذاهم عن الناس.“⁴⁹ ودليل ذلك أيضا ما ساقه ابن خلدون في سياق تفسيره لبواعث تأسيس فاس الجديد حين كتب: ”ورأى أمير المسلمين (يعقوب بن عبد الحق) أن أمره قد استفحل وملكه قد استوثق واتسع نطاق دولته وعظمت غاشيته وكثر وافده رأى أن يختط بلدا يتميز بسكنائه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس...“⁵⁰ ويعزره كذلك قول ماثل لابن مرزوق الذي كتب في المسند عن مناقب يعقوب بن عبد الحق ما يأتي: ”وهو الذي بنى المدينة البيضاء فاس الجديدة ومهداها واتخذها مسكنه ومسكن جيشه ليميز ما بينهم وبين الحضرة من أهل فاس.“⁵¹ وبناء على هذه الاعتبارات، يكون نقل اليهود إلى الملاح وتأسيس فاس الجديد أيضا، جزءا من مخطط شامل استهدف التحكم في عمران العاصمة المرينية الذي اختلت موازينه، وما العنف المادي الذي شاب انتفاضة سنة 764هـ/1276م إلا إحدى تجليات هذا الاختلال.

- والثانية هي سنة 841هـ/1438م: من المؤكد أننا لا نعرف على وجه اليقين متى انتقل اليهود إلى الملاح. لقد وردت الإشارة في كتاب يحاس فاس إلى أن أقدم عقود الملكية العقارية بالحي يعود تاريخها إلى سنة 841هـ/1438م،⁵² غير أن هذه الإشارة على أهميتها لا تمثل دليلا لإثبات مغادرة كافة اليهود لمساكنهم بعدوة القرويين، ومن المحتمل أن يكون انتقالهم إلى فاس الجديد قد وقع تدريجيا وعلى مراحل، وأن يكون اليهود العاملون في الدواوين السلطانية، من أمثال القهرمان

49. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، 96.

50. ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 7، 401.

51. محمد بن مرزوق، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغرا (الجزائر:

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981)، 116.

52. ارتأينا اعتماد التاريخ الموجود في النسخة الأصلية للمقال لورود خطأ مطبعي في الترجمة العربية حور المعنى: 1838

بدل 1438.

Y. D. Semach, "Une chronique juive de Fès: le Yahas Fès de Ribbi Abner Hassarfaty," *Hespèris* XIX (1934): 91.

خليفة بن وقاصة (أو رقاصة أو الزمامي)⁵³ وأخوه ابراهيم وصهره موسى السبتي، من أوائل الملتحقين بالمدينة الجديدة.⁵⁴ ويمكن أن نلحق بهم الممتهين منهم لنشاط الصياغة في سوق متاخم لدار السكة المجاورة لقصور بني مرين، وذلك استنادا إلى ما دلنا عليه الحسن الوزان في سياق وصفه للمنشآت المحدثّة بفاس الجديد.⁵⁵ ويتعين علينا والحالة هذه اعتماد تاريخ محدد آخر أمكننا استنباطه من سياق خبر مقتل عبد الحق بن أبي سعيد، آخر سلاطين بني مرين، ووزيريه اليهوديين هارون وشاول بن بطاش في رمضان سنة 869هـ/1465م، وما رافقه من قيام العامة على يهود العاصمة فاس. ونسوق بشأن هذا الحدث، نصا للرحالة المشرقي عبد الباسط بن خليل، مؤلف الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، جاء فيه:

”وبادروا إلى حارة اليهود، ووضعوا فيهم السيف، وقتلوا منهم ما شاء الله أن يقتلوا، ولم يكفوا عن أحد منهم حتى أفنوهم عن آخرهم، بحيث أخلوا الحارة منهم. وكان يوما مشهودا بفاس، وملحمة عظيمة قتل فيها جمع كثير العدد من اليهود. ثم قصدوا دار السلطنة فهاجموا، وقتلوا اليهودي الذي كان بها نائبا عن الوزير.“⁵⁶

ويستمد من هذا النص، أن اليهود كانوا في هذا التاريخ، أي 869هـ/1465م، مستقرين في ملاحهم جوار قصور ملوك بني مرين بفاس الجديد، فلولا أنهم كانوا متجمعين في مكان واحد لما أفلح الثائرون الغاضبون-بفعل التحريض الذي قاده ضدهم خطيب جامع القرويين عبد العزيز الورياغلي ومزوار الشرفاء محمد بن علي بن عمران الجوطي-⁵⁷ من الظفر بآلاف منهم، والفتك بهم كافة في يوم واحد. ولو كانوا منتشرين بين أحضان المسلمين، وفي جميع أنحاء فاس، لاستطاع كثير منهم

53. يقول محمد الغرايب بشأن أصل اسم وقاصة: ”لا نستبعد أن يكون اسم وقاصة الذي نسب إليه خليفة هو اسم إحدى جداته التي اشتهرت بالمداواة، لأن توقاصت أو تقاوصت في الأمازيغية تعني المرأة التي تمارس كل أنواع العلاج التقليدي.“ محمد الغرايب، مجتمع يهود المغرب الأقصى الوسيط، دراسة تاريخية واجتماعية (الرباط: مطبعة الرباط نيت، 2012)، 262.

54. ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 7، 473-474.

55. الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، 283.

56. Robert Brunshvig, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^{ème} siècle Abdalbasit b. Kalil et Adorne* (Paris: Éditions Larose, 1936), 53.

57. أحمد بن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج. 1 و 2 (القاهرة: دار التراث، د.ت.)، 127-128 و 159-160.

النجاة بنفسه، ولما وصل المتفضون إلى محلاتهم السكنية بهذه السرعة، وكان أيضا عدد الضحايا في صفوفهم أقل بكثير مما كتبه عبد الباسط بن خليل.⁵⁸ ونجد هذه الرواية مكررة عند القادري صاحب نشر المثنائي مع تفصيلين يستحقان الوقوف عندهما. ويتمثل الأول في ذكر سبب الواقعة جاء فيه:

”وكانت اليهود تتحكم في الشرفاء والفقهاء وأكابر الناس. وكان له (عبد الحق المريني) حاكم يقال له لحيسن يبالغ في الجد والاجتهاد في الأخذ (جباية الضرائب)...أخذ لحيسن امرأة شريفة في البلدة، قيل بدار الكومي بدرب بنيارة، وصار يضر بها...“⁵⁹

أما التفصيل الثاني فيتعلق بتسمية القادري للحي الذي جرى فيه الاقتال بالملاح على عكس عبد الباسط بن خليل الذي اكتفى بنعته بحارة اليهود، وهو أمر مستساغ ما دام الخبر قد تواتر عنده بالسماع أثناء مقامه بالجزائر.⁶⁰

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية تستحق أيضا تسليط الضوء عليها، لأننا عند النظر إلى الروايات التقليدية ذات الصلة بنشأة ملاح فاس الجديد، من زاوية بنيتها العامة، نكتشف تكاملها من جهة، وتنميط أحداثها من جهة ثانية. ويتجلى تكاملها في اتساقها مع الأخبار التي واكبت تأسيس الملاحات في وقت لاحق، وإيجائها بالتالي بوجود مخطط سعى إلى عزل يهود المدن والحوضر ذات التأثير، جرى التأسيس له في فاس خلال عصر بني مرين، ونفذ في مراكش أيام سلاطين السعديين (ما بعد عام 970هـ/1562-1563م)، وفي مكناس زمن المولى إسماعيل سنة 1093هـ/1682م، ثم عمم بأمر من المولى سليمان في أربعة مدن متوسطة الحجم كان لها وزنها الخاص، إذ شهدت سنة 1222هـ/1807م صدور قرار سلطاني نص على تأسيس أربعة منها دفعة واحدة، في العدوتين سلا والرباط وفي تطوان والصويرة. وأما التنميط، فيتجلى في التبسيط الحاصل للأحداث من خلال الاستعانة بذرائع ذات نبرة عالية تميز رفع الشرعية عن إقامة يهود فاس بين المسلمين، وتقييم الحجة

58. تطابقت رواية المصادر العبرية لهذه الأحداث مع ما أورده المصادر العربية بشأنها. انظر:

Meyer Kayserling, “Une persécution des juifs à Fez,” *Revue des Etudes Juives* (1899): 315-317.

59. محمد القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق (بيروت: دار

الغرب الإسلامي، 1996)، 193.

60. نفسه، 195.

على انتقاضهم لعقد الذمة الإطار الفقهي الناظم ببنوده الإثني عشر لاستقرارهم بالمدينة، شأنهم في ذلك شأن بقية أهل الكتاب، وذلك من قبيل تجاسرهم على فعل الفاحشة بنساء المسلمين، أو تجديد جامع الأشراف حيث قبر إدريس الثاني مؤسس المدينة وحاميها، والرغبة في تحصينه مما أصابه به من الدنس جراء إقامة اليهود بجواره، أو تجاهرهم بشرب الخمر أمام الملاء داخل جامع القرويين الذي تقوم عليه مكانة فاس العلمية والدينية.⁶¹ لقد وقعت الاستعانة باعتماد الذرائع ذاتها في مراكش، إذ اقترن نقل يهود مراكش وتجميعهم في حي مستقل جنوبي المدينة، بين باب أعجمات والقصبة،⁶² بشروع السلطان السعدي عبد الله الغالب في تشييد مجمع المواسين الذي ضم، فضلا عن جامع الأشراف، المنشآت اللازمة للحياة الحضرية مثل المدرسة والحزانة والحمام ومسكن الإمام والكتاب القرآني والسقاية الخارجية الواقعة بمحاذاة صهريج لورد البهائم، إذ يعتقد أن هذا المجمع قد أقيم على أرض كانت لمقبرة يهودية، بدليل ما جاء في النزهة والاستقصا عن رفض أبرز علماء المدينة أداء الصلوات في جامعهم (جامع الأشراف).⁶³ ووقع الأمر ذاته في تطوان بحديثات مماثلة؛ وبحجة الحساسية التي تثيرها مجاورة اليهود للجامع الأعظم بتطوان-تحديدا بعد أن بادر المولى سليمان إلى إصلاحه والزيادة فيه-صدر الأمر بترحيلهم من أماكن سكنهم بحومة البلد إلى الملاح الذي تقرر تشييده في موضع مملوك للدولة كان يسمى الرياض.⁶⁴ أما في سلا، فيقدم الإخباري محمد بن علي الدكالي السلاوي تبريرا أكثر دقة ومباشرة، مفاده أن المسلمين "سئموا مجاورتهم ومخالطتهم مع مخالفة الدين والطباع وعفونة اليهود وما جبلوا عليه من كراهية الإسلام والمسلمين،"⁶⁵ فوضعوا خطة محكمة للضغط على المولى سليمان وحمله على الرضوخ لمطلبهم الرامي

61. الخليلي، "بناء الملاحات بالمغرب"، 121.

62. في موضع سوق كان تباع به فيه الخيول، ويسمى رحبة الخيل.

Henri Koehler, "La Kasba saadienne," *Hespéris* XVII (1940): 5.

63. محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد العزيز الشاذلي (الدار البيضاء:

مطبعة النجاح الجديدة، 1998)، 110.

64. محمد داود، تاريخ تطوان، ج. 3 (تطوان: مطبعة المهدي، 1962)، 238.

65. محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز "تاريخ العدوتين" (سلا: المكتبة الصبيحية، 1980)، 48.

إلى إخراج اليهود من حومة احسين تحديدا، القربية من المسجد الأعظم.⁶⁶ ويستطرد صاحب الإتحاف في شرح تفاصيل هذه الخطة بما يلي:

”فاحتال بعض الخذاق من المجاورين لهم بالسكن بأن اشترى منهم قنينة خمر وتربص، حتى صلى الناس العشاء وشرعوا في صلاة التراويح، قصد الجامع المجاور للملاح القديم ... وكسر القنينة ببابه ونادى: معشر المسلمين، هلموا، انظروا ما يفعله اليهود بمساجدنا من إراقة الخمر وإفساد الصلاة علينا. فأعملت البيعة بذلك، ورفعت لأمر المؤمنين مولانا سليمان.“⁶⁷

وقد استجاب المولى سليمان لهذه الشكوى، خصوصا وأن الضجة المفتعلة في سلا تزامنت مع أجواء الاحتقان التي سادت الرباط عقب انتشار شائعة باغتصاب شاب يهودي لامرأة مسلمة، ومن ثم صدر قرار بعزل اليهود في كلتا المدينتين، تلافيا لكل ما من شأنه المساهمة في استفحال الأمر.⁶⁸

والحقيقة أنه في الاستعانة بهذه الذرائع ذات النبرة العالية إخفاء لصراع أكثر التصاقا بالواقع، دارت رحاه في أسواق فاس، وكان جوهره السعي وراء تحجيم حركة اليهود الاقتصادية، وتحديد نشاطهم التجاري. لقد كشفت الدلائل عن مدى التدمير من هذه الفعالية، حيث ذكر ابن عذاري أن يوسف بن تاشفين ”افترض (في سنة 464هـ/1072م) على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته، اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار،“⁶⁹ وهو دون شك مبلغ ضخيم في ذلك الزمن ودليل على فحش ثرائهم. وقد سبقت لنا الإشارة إلى امتعاض تجار فاس مما تمتع به اليهود من حظوة ما فتئت أن انتهت بعد إجراءات حازمة

66. كشف كينيث براون عن وجود قصر في هذا الحي كان في ملكية اليهودي موسى العطار الذي عمل في بلاط السلطان المولى إسماعيل، هو الآن حاليا مدرسة ابتدائية تحمل اسم الدكالي. كينيث براون، موجز تاريخ سلا (1000-1800)، ترجمة محمد حبيدة وأنس لعلو (الدار البيضاء: دار النشر الأمل، 2001)، 73.

67. الدكالي، الإتحاف الوجيز، 48.

68. Joseph Goulven, “Esquisse historique sur les Mellahs de Rabat-Salé,” *Bulletin de la Société de Géographie commerciale de Paris* (1922): 29; Jacques Caillé, *La ville de Rabat jusqu'au protectorat français* (Paris: Éditions Van Oest, 1949), 324.

69. محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تحقيق ليثي بروثنسال و جورج س. كولان، ج.4 (بيروت: دار الثقافة، د.ت)، 23.

اتخذها أمراء الموحديين في حقهم.⁷⁰ ومن باب التنافس الاقتصادي يمكن تفسير ما لحق باليهود من أعمال عنف متكررة بلغت ذروتها في أعقاب حملة التحريض المشهورة التي شنّها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت. 909هـ/1505م) تجاه يهود الصحراء، وخاصة في توات ونواحيها،⁷¹ وهذا فضلاً عما كابدهه أيضاً، وعلى النحو نفسه، سواء على امتداد سنوات سيطرة الزاوية الدلائية في ايت إسحاق على مقدرات المدينة أو خلال سنتي حكم المولى اليزيد.⁷² ومن باب الحرص على المصالح، يمكن فهم مقاومة يهود فاس لقرار ترحيلهم إلى الملاح، إذ فضلت فئات عريضة منهم الانسلاخ عن دينها الأول واعتناق الإسلام بدلاً من المجازفة بفقدان مكتسباتهم العمرانية الأولى ومزاياها الاقتصادية. ولا يفوتنا في هذا السياق أن نذكر أطوار النزاع الذي اندلع في فاس لفترة غير قصيرة من تاريخها، حول اعتماد من باتوا يسمون بـ “البلديين”، ذوي الأصول اليهودية-للقيسارية والأسواق الكبرى،⁷³ إذ أظهرت الدراسات المهمة باستجلاء خفايا هذا النزاع الدائر بين أبرز مكونات التشكيلة الحضرية في المدينة المتضمنة للأشراف والأندلسيين والبلديين واليهود، مدى تستره وراء الدين والأخلاق والشرف، بينما تكمن حقيقته العميقة في الحرص على قوة النفوذ والرغبة في الهيمنة الاقتصادية.⁷⁴

70. جاء في كتاب الاستبصار: “وقد كان تنبه لهم الأمر العالي فليس المرتشون وشوش المشوشون وخوف المفتشون، فأرجأ القدر السابق هذا على نهاية أمد عزهم وابتداء نكستهم إن شاء الله وذوهم وهي سنة 571 (المحقق 591).” مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، 202.

71. لم يبق من آثار وجود اليهود بناحية توات إلا القليل، انظر في هذا الصدد:

Moïse Schwab, “Deux inscriptions hébraïques,” *Revue des Etudes Juives* (1904), 137. Simone Bakchine-Dumot, “Une inscription tumulaire hébraïque du Touat,” *Revue des Etudes Juives* (1979): 144.

72. انظر: عبد العزيز شهبر، “فتنة يهود تطوان على عهد السلطان المولى اليزيد من خلال المصادر العبرانية،” ضمن تطوان خلال القرن الثامن عشر 1727-1822، ندوة نظمت بتطوان أيام 21-23 أكتوبر 1993، (تطوان: مطبعة الهداية، 1994): 73-80.

73. انظر: محمد ميارة، نصيحة المغترين وكفاية المضطربين، تحقيق محمد الغرايب ومصطفى بنعلة (الرباط: مطابع الرباط نت، 2013).

74. أبرزها دراسة غارسيا أرينال مرسدیس:

Mercedes Garcia-Arenal, “Les bildiyyin de Fès, un groupe de néo-musulmans d’origine juive,” *Studia Islamica* 66 (1987): 113-143.

ويتبين مما سلف أن نشأة ملاح فاس الجديد قد تكاملت فيه عناصر الدين (الجامع) والاقتصاد (السوق)، إلى جانب تحديات التعمير، من خلال تقويم خطط المدن إثر اتساع نطاق نموها العمراني، ونتيجة استعادتها لوضعيتها السابقة كعاصمة. وإذا كانت ظاهرة الملاح قد تمخضت من رحم فاس المرينية إلى مراكز السعدية، ثم إلى مكناس حاضرة المولى إسماعيل، فإنها قد حققت انتشاراً أبعد مدى في ظل المولى سليمان بعد أن رأى فيها ضماناً أكبر للنجاح في تدبير علاقات التعايش بين المسلمين واليهود داخل بعض مدن المغرب الأساسية وقتئذ مثل عدوتي الرباط وسلا وتطوان والصويرة. وأحدثت هذه السياسة التعميرية الجديدة انقلاباً في حياة اليهود المقيمين في أحياء تلك المدن ونمط استقرارهم من الاختلاط بالمسلمين سكنياً إلى الانعزال عنهم، حيث بات نطاق وجودهم العمراني محصوراً في مجال محدد لا يتجاوز الأسوار المحيطة بالملاحات. بيد أن القوة الدافعة بالملاح من منشئه الأول بفاس فقدت وهجها خارج المغرب الأقصى ولم تمتد لتشمل محيطه العربي الإسلامي، إذ لم يتردد في المصادر التاريخية ولا في الكتابات الحديثة اسم للملاح أو لمؤسسة شبيهة به في باقي بلاد المغرب والأندلس أو المشرق.

عمران من وحي عقد الذمة

يقع الملاح جنوبي فاس الجديد فوق تل يشرف على الواد الأعظم أحد روافد واد فاس. ويحده من الشمال والشمال الشرقي شارع البوخصيصات الذي يفصل الحي عن أسوار القصر الملكي وأجزاء من حي السمارين،⁷⁵ ومن الجنوب مقبرة اليهود الحالية، ومن الشرق حيي النواويل وسيدي بونافع، ومن الغرب ساحة العلويين المطلة على المدخل الرئيس للقصر الملكي المعروف أيضاً بباب المشور. وتبلغ مساحة الملاح الراهنة حوالي خمس هكتارات، ويشكل جزءاً من فاس الجديد الممتد على مساحة 95 هكتاراً مع احتساب القصر الملكي وملحقاته من مشاور وبساتين.

ويبدأ الحي من أمام باب الملاح، ويأخذ اتجاهه على نحو شبه مستقيم متبعاً مسار الشارع الرئيس، الممتد على طول نصف كيلومتر تقريباً، إلى أن يفضي إلى المقبرة اليهودية القديمة (ساحة التجارة وجزء من ساحة العلويين حالياً) المستندة

75. نسبة إلى باب السمارين أو باب المسامرين. محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة البهية وعد بعض مفاخرها البهية، تحقيق إدريس بوهليلة، ج. 2 (الرباط: دار أبي رقرق، 2015)، 200.

إلى السور المريني المزدوج الغربي الذي لم يتبق منه سوى أطلال باب الأمر (لحمر).⁷⁶ ويقسم هذا الشارع الرئيس الحي إلى شطرين:

- شطر أول يقع شمال غربي الملاح، يتوسطه درب الفوقي الذي يربط بين الشارع الرئيس والبوخصيصات؛ ويضم هذا عددا من المنازل الفخمة الواسعة ذات الشرفات البارزة إلى الخارج ومثلها منزل رئيس الطائفة اليهودية يهودا مانصانو الذي قضى به المولى الرشيد، حسب ما ورد في المصادر العبرية، أول ليلة له بفاس الجديد سنة 1076هـ/1665م، فتمت له السيطرة في اليوم اللاحق على مجموع المدينة،⁷⁷ ومنزل عائلة بنسّمحون الذي استضاف الرحالة شارل دو فوكو (Ch. de Foucault)، صيف 1883 عند حلوله بفاس.⁷⁸

- شطر ثان يقع جنوب غربي الملاح، وتحده من جهة الجنوب المقبرة اليهودية الحالية، وتنتشر بين منازل محلات حرفية ودكاكين تجارية، فضلا عن المجزرة المسماة بـ"الگورنة".

وكان للحي فيما مضى منفذ واحد هو باب الملاح المتصل بباب السمارين، أكثر أبواب فاس الجديد نشاطا من جهة الجنوب. وكما جرت العادة بسائر الملاحات، فقد وضعت تدابير عديدة لحمايته نذكر منها ما يلي:

- تحصينه ببرجين للاستطلاع والمراقبة لم يبق لهما أثر حاليا.

- نصب حرس يجهزه المخزن بالعصي والبنادق عند انعدام الأمن، إذ جاء في كتاب التواريخ أن رؤساء الجماعة اليهودية بفاس التمسوا من سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) تعيين قائد وقاض لتأمين حيهم. فكان رده كالآتي: "لا ليس

76. لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شهد الملاح تغيرات ملحوظة خلال الفترة الاستعمارية، خصوصا وأنه كان مسرحا لأحداث دموية يومي 17-19 أبريل 1912، بعد مرور أسبوعين على توقيع عقد الحماية وتمرد الجنود المغاربة والقبائل المحيطة بفاس على القوات الفرنسية التي أخذتها بقوة السلاح، إذ تعرض الملاح للقصف ونهبت ممتلكات اليهود الذين أمر المولى عبد الحفيظ بنقلهم إلى حدائق القصر الملكي في انتظار استقرار الأوضاع، انظر: محمد حجي، "وثقتان جديدتان حول ملاسبات إبرام معاهدة الحماية"، ضمن التاريخ والفقهاء: أعمال مهدة إلى المرحوم محمد المنوني (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002)، 55-83.

Jacques Hubert, *Les journées sanglantes de Fès* (Paris: Librairie Chapelot, 1913); Louis Mercier, "Souvenirs des massacres de Fès," *France Maroc* (1916): 11-17.

77. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 42.

78. روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، 159.

لليهود ما يخافون منه، اذهبوا إلى بيوتكم [سالمين]. ويوم الجمعة صباحا، أرسل الملك، سمت جلالته، أربعة قواد لحراسة المدينة [حي اليهود]. وبعد ذلك أرسل إثني عشر قائدا مع القائد علال بن مسعود ليقول إنه مع اليهود.⁷⁹ وقد اشترط على الجماعة اليهودية الإنفاق على هذا الحرس، وورد أيضا في الكتاب نفسه أن يهود فاس كانوا "يعطون لحراس الحومة [الملاح] مائة أوقية، لأن أمر السلطان كان كذلك."⁸⁰

- تحديد مواقيت الفتح والإغلاق. ونورد في هذا الصدد تعليقا صدر عن روجي لوطورنو في شأن هذا الإجراء الجاري به العمل بفاس قبل الحماية الفرنسية: "عند حلول الليل كان يغلق هذا الباب ويسلم مفتاحه إلى يهودي كان يفتحه في الفجر عندما يأتي الحراس المسلمون."⁸¹

إن إسهابنا في الحديث عن الدور الأمني لباب ملاح فاس الجديد لا يجب أن يُغفلنا عن ذكر وظائف أخرى اضطلع بها أو أسندت إليه، إذ جرت العادة بإغلاق أبوابه عند استخلاص الجزية الواجبة على القاطنين فيه باعتبارهم أهل ذمة.⁸² وقد ورد في كتاب التواريخ أن في سنة 1116هـ/1704م: "جاء سي الحاج مسعود جسوس ومعه سي علال بن مازط لجمع الجزية. فأقفل أبواب الملاح (بفاس الجديد)، وقبض على كل الطائفة حتى تقدم الجزية في نفس اليوم."⁸³ كما كان لوجود الباب دوره الفاعل في إمكانية التحكم في قيمة العقارات، بحكم أن

79. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 73.

80. نفسه، 20.

81. لوطورنو، فاس قبل الحماية، 394.

82. ذكر ابن أبي زرع في الذخيرة السنية أن صرف الجزية على عهده كان يذهب في العناية بالمارستانات وفي بناء المدارس. ومما يذكر أيضا أن جمع الجزية شكل في بعض الحالات ريعا استفاد منه وجهاء المخزن وأعيانه، فقد أورد عبد الرحمن بن زيدان في المنزح اللطيف نسخة من ظهير للمولى إسماعيل نص على إسناد النظر للجزية الواجبة على يهود مكناس إلى طبيبه الخاص عبد الوهاب بن أحمد أدراق (ت. 1159هـ/1746م)، هذا مقتطف منه: "كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره بيد خديمتنا الفقيه الأجل الحكيم الأنبل السيد عبد الوهاب ابن الفقيه النزيه الحكيم الوجيه السيد أحمد أدراق يتعرف منه بحول الله وقوته أننا أنعمنا عليه بعبالة الجزية الواجبة على أهل الذمة القاطنين بملاح مكناسة حرسها الله وزدنا له في ... إعانة له على ما هو بصده من ملازمتنا وخدمة جنابنا العالي بالله على مقتضى حكمته وشريف صنعته إنعاما تاما والواقف عليه يعمل به والسلام، في الرابع من صفر الخير عام سبعة وثلاثين ومائة وألف (1725م)؛" ابن أبي زرع، الذخيرة، 162؛ عبد الرحمن بن زيدان، المنزح اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل، تحقيق عبد الهادي التازي (الدار البيضاء: مطبعة إديال، 1993)، 87.

83. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 60.

هيمنة التجارة والمهن الحرفية على اقتصاد الملاح جعلت من باقي أحياء المدينة وحواماتها الممون والزبون في الآن نفسه، ومن ثم كلما اقتربت مواقع العقارات من مدخل الملاح إلا وارتفعت أسعارها، وانتقلت كذلك وحدة قياسها من اعتماد المتر المربع إلى الشبر. ومن هنا يمكن تقدير مدى قيمة قيسارية الذهب التي تؤثر الفضاء المحيط بباب الملاح.⁸⁴

وفيا يخص الأسوار، فإنها تتجاوز مسألة الحيطان العالية الرامية إلى توفير الحماية والأمن لساكنة يهودية وصد الأخطار الخارجية عنهم، لتصبح في واقع الأمر عبارة عن خط تماس للحمي مع محيطه، بل وتجسيدا ماديا للغايات الكبرى التي أحدث الملاح من أجلها، والقاضي بتخصيص حيز مجالي في فاس ينفرد اليهود بسكناه دون سواهم، ويمتعمهم بحرية تدبير شؤونهم بعيدا عن عين الرقابة، وبعيدا عن تدخلات الغالبية المسلمة التي ربما ضاقت صدور بعض فئاتها بممارسات تعتبرها مستهجنة، من قبيل الجهر بشرب الخمر وبيعه في الأسواق، والنفخ في الأبواق إعلانا عن بداية توقيت السبت ونهايته، والاحتفال في الشوارع بالأعياد الدينية مع ما يصاحبها من رفع للأصوات الصادحة بالترانيم والابتهالات. وهكذا يمكن قراءة جواب الربّي الحبيب بن يوسف طوليدانو، أحد كبار أحرار اليهود خلال القرن الثامن عشر، عن استفسار طرح عليه في شأن المغزى من أسوار الملاح، فجاء رده كالتالي: "إنها الحد بين المقدس والمدنس."⁸⁵ وبناء عليه، يمكننا إدراك المعنى مما سطره عبد الرحمن بن زيدان في العز والصولة بشأن الغاية من إحداث الملاحات بكبريات حواضر المغرب:

"فملوك المغرب وساداته عرفوا كيف يتفادون اصطدام المسلمين مع اليهود ويجنبونهم الوقوع في مشاكل معهم، ويتلافون سوء تفاهم يقع بين مواطنين يقلل من راحة الدولة، ويسبب قلاقل تفضي

84. يشار هنا أن باب الملاح لم يعد في الوقت الراهن يؤدي الأدوار المنوطة به، وهذا ليس أمرا طارئا، فقد تغير الوضع جذريا منذ أن قررت سلطات الحماية الفرنسية فتح منفذين في السور المريني المزدوج، بالإضافة إلى أعمال التطوير التي طالت منطقة البوخصيصات عبر فتح طريق معبد للسيارات.

Susan Gilson Miller, "The Mellah of Fez: Reflections on the Spatial Turn in Moroccan Jewish History," in *Jewish Topographies; Visions of Space, Traditions of Place*. Julia Brauch, Anna Lipphardt and Alexandra Nocke ed. (London: Ashgate, 2008), 103-105.

85. Joseph Toledano, *L'esprit du Mellah* (Jérusalem: Éditions Ramstel, 1986), 4.

إلى ما لا تحمد عقباه، فضرّبوا بينهم سورا وبنوا لليهود من خلفه ملاحا
يأويهم مستقلين مطمئنين إلى حياتهم وتقاليدهم وأموالهم وأنفسهم.⁸⁶

ويوجد تفصيل ثان كان له بالغ الأثر على المسار الذي اتبعه العمران بملاح فاس
الجديد، ويتعلق الأمر بتثبيت الأسوار لأراضيها وحيلولتها دون حدوث أي تغيير في
مساحتها، لأنها وقفت حاجزا أمام كل محاولة لإحداث توسع أفقي يتيح استيعاب
مزيد من التكاثر السكاني الناجم عن تلاحق الهجرات والنمو الديموغرافي، مما
حتم اختيار الامتداد العمودي بكل ما صاحبه من بروز وانتشار لعناصر معمارية
كانت ضرورية لتلبية حاجيات البنايات القائمة إلى التهوية والإضاءة، من نوافذ
خشبية مطلة على الشوارع وشرفات امتدت بامتداد الواجهات الأمامية للمنازل.
بيد أن هذا التوسع العمراني العمودي لم يوفر جميع الحلول المطلوبة؛ إذ فرضت
الحاجة إلى البناء، من جهة أولى، نقض الأسوار أو تحويل أماكنها بغية ضم أراضي
إضافية إلى مساحة الملاح الأصلية. وحدث ذلك عند بداية العهد العلوي، إذ ترتبت
عن استيلاء المولى الرشيد على الزاوية الدلائية لايت إسحاق سنة 1084هـ/1668م
وإصدار أمره بإخلاء مبانيها وطمس معالمها،⁸⁷ أمور كثيرة يهمننا من بينها وصول
أفواج كبيرة من سكانها اليهود إلى ملاح فاس الجديد. وقد أرخ أحد أحبار عائلة
ابن دنان، شأؤول بن دنان، لهذا النزوح بقوله: ”وأنت كل الطائفة إلى هنا، إلى
فاس، وكان ذلك في شهر آب الرحيم من سنة 5428 لبدء الخليفة.“⁸⁸ وقدم ابنه
السموأل معلومات دقيقة عن عدد هؤلاء النازحين، إذ أرفق نص والده بالتعليق
التالي: ”وكانت الطائفة التي وردت على الزاوية مكونة من قرابة ثلاثمئة بعل
بيت.“⁸⁹ والواضح أن الحيز المخصص وقتئذ قد عجز عن استيعاب هذا الفائض
السكاني، مما حتم تخفيف الضغط عليه عبر التوسع خارج السور المريني المزدوج
الذي كان يحيط بالحلي اليهودي من جهة الجنوب. ولعل أكبر دليل على ذلك موقع
بيعتين بارزتين بالحلي:

86. عبد الرحمن بن زيدان، العز والصلوة في معالم نظم الدولة، ج. 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1962)، 132.

87. محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988)،
254-252.

88. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 43.

89. نفسه.

- صلاة شلومو بن دنان المستندة إلى جزء من هذا السور من الجهة الخلفية والتي ينسب بناؤها في سنة 1091هـ/1680م إلى أحد أعيان يهود فاس المدعو ميمون بوسيدان، قيل إن أصله من الزاوية الدلائية لآيت إسحاق.

- صلاة الفاسيين المستندة هي الأخرى من جهة الجنوب الشرقي إلى جزء من السور المريني، بل يشغل جزء منها أحد أبراج حراسته الذي ارتفعت البناءات السكنية حوله نتيجة لامتداد مساحة الحي في اتجاه الجنوب الشرقي.



صورة رقم 1: صلاة شلومو بن دنان من الداخل، حيث يشكل الهيكل محور قاعة الصلاة.

ومن جهة أخرى، لم تسمح الأسوار بقضم أراضي الملاح عبر تمدد باقي حومات فاس الجديد في اتجاهها، ما عدا في حالة تـؤرخ بعهد المولى اليزيد، وتتصل بقراره القاضي بإفراغ الحي من اليهود وترحيلهم قسرا إلى قصبة الشاردة. وجاء في كتاب يجاس فاس أن المساحة الحالية للملاح تعود إلى هذا العهد، وأنها لا تمثل في حقيقة الأمر سوى ربع مساحة الحي الذي انهدمت أسواره وأعيد بناؤها بغية اقتطاع أراضي شاسعة تحولت إلى بساتين وحدائق.⁹⁰ ومن أجل ذلك كله، أولت الجماعة اليهودية بفاس عنايتها الخاصة بتأمين الأموال الكافية لترميم الأسوار

90. سماح، يجاس فاس، 172.

المحيطة بحيها وإصلاحها متى لزم الأمر. وحثتنا في ذلك ما رواه أحد أحبار عائلة ابن دنان حول تكفلها، بترميم الأسوار على نفقتهم بعد هدم أجزاء منها، زمن حكم المولى اليزيد المشار إليه أعلاه، إذ كتب ما يلي: ”وشرعنا بعد العيد في بناء الثغور التي حدثت بالمدينة (الملاح)، نغلق الأماكن المهدامة، نبتاع السواري والألواح والأبواب.“⁹¹

وترد في المصادر التاريخية إشارات عديدة عن دور العبادة المبنية بالحلي، فنجد عند القسيس البلجيكي نيكولا كلينار (Nicolas Clénard)، وكان قد أمضى وقتاً طويلاً بفاس ابتداء من سنة 947هـ/1540م، أن يهود المدينة البالغ عددهم أربعة آلاف نسمة يمتلكون ما بين ثمانية وتسعة بيعات.⁹² كما حفظت مدونات أحبار فاس ذكرها لمجموعة من البيع:

- بيعة بنيامين ناهون تحقق وجودها سنة 992هـ/1584م.⁹³
- بيعة الحبر يوسف الموسنينو تحقق وجودها سنة 1021هـ/1612م.⁹⁴
- بيعة سعديا بن ربوح المعروفة أيضاً بالبيعة الكبرى تحقق وجودها سنة 1021هـ/1612م.⁹⁵
- بيعة محاذية لباب الملاح تحقق وجودها سنة 1025هـ/1616م.⁹⁶
- ثمانية بيع تحقق وجودها سنة 1056هـ/1616م الموافقة لفترة هيمنة الزاوية الدلائية على مدينة فاس، ويتعلق الأمر تباعاً ببيعة التازي وبيعة تلمود التوراة وبيعة إسحاق ابزرديل وبيعة سعديا ربوح وبيعة يعقوب روتي وبيعة التوباشيم وبيعة المغوراشيم وبيعة حايم عوزيل.⁹⁷

91. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 91.

92. Roger Le Tourneau, "Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour au royaume de Fès 1540-1541," *Hespéris* XIX (1934): 52.

93. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 15.

94. نفسه، 21.

95. نفسه.

96. نفسه، 32.

97. نفسه، 34-37.

- أربعة عشر بيعة وقع تشييدها إثر عودة اليهود من منفاهم القسري بقصبة الشاردة خلال سنتي حكم المولى اليزيد، ويتعلق الأمر بصلاة الفاسيين وصلاة الدبادبة، نسبة إلى اليهود النازحين من مدينة دبدو، وصلاة العباد وصلاة الربى يعقوب الكوهن وصلاة الحاخام (صلاة الربى إياهو السرفاتي) وصلاة الربى عبو وصلاة شمعون الباز (صلاة الصاباط) وصلاة الربى عمانويل وصلاة الربى إياهو السرفاتي (صلاة هارون مونسينكو) وصلاة الربى يعقوب أبنسور (صلاة يعبيتز) وصلاة الربى ميمون وصلاة الربى يهودا بن عطار وصلاة السوق (صلاة الربى مطاتيا سريرو).⁹⁸

وتجدر الإشارة هنا إلى مدلول الأسماء التي أطلقها يهود فاس على دور عبادتهم، إذ جرت العادة على تسميتها بـ "الصلاة" وجمعها "الصلوات"، وهي كلمة المقصود منها المكان الذي تقام فيه طقوس العبادة. كما شاع في المصادر العبرية استعمال كلمات رديفة كالبيت الكبير والشنوغة وجامع اليهود والبيعة والكنيس (الهكنست). ومن الشائع أيضا انتسابها إما إلى الأحرار الذين أموا الصلوات بها، وإما إلى الأعيان ممن تكفلوا بنائها أو الإنفاق عليها، وإما إلى الروافد التي طبعت بسماتها الاجتماعية التشكيلية البشرية للحي. إن أهمية هذه التسميات تتعدى دلالاتها الطوبونيمية الصرفة إلى بعد آخر يتمثل في الوضعية العقارية المعقدة لبيع فاس، والمغرب عموما، بحكم انقسامها إلى صنفين:

- بيع كانت في الأصل ملكا للجماعة اليهودية ثم آلت حيازتها إلى نسل الأحرار الأوائل ممن قاموا على خدمتها. وقد تأكد لدينا وجود بيعة جماعية على الأقل نهاية القرن التاسع عشر بفاس.⁹⁹

- بيع خاصة احتضنتها مساكن الملاح وأفرزها تعدد الروافد البشرية المستقرة به، وتنامي التوترات بينها على المستويين الاقتصادي والثقافي،¹⁰⁰ على الرغم من اعتراضات رؤساء الجماعة اليهودية بفاس ممن رأوا في تكاثرها إضعافا لسلطتهم وتقليصا لعدد المترددين على البيعة العمومية، وسببا في التقليل من مواردها المالية.

98. سباح، بحاس فاس، 165-166.

99. Shlomo Dshen, *Les gens du Mellah*, traduit par Janine Gdalia (Paris: Éditions Albin Michel, 1991), 156-157.

100. نفسه، 88.

ولعل أحسن مثال على هذا الاعتراض هو ما جاء في محتوى القرار الصادر بفاس باسم مجلس جماعتها اليهودية سنة 1132هـ/1720م، والقاضي بمنع بناء أي بيعة خاصة دون الحصول على ترخيص بذلك.¹⁰¹

ويسهم هذا المعطى في إدراك تماهي أكثر بيع فاس مع المباني السكنية واستغلال جلها لإحدى غرفها أو لأحد طوابقها، فيما كان أي منزل بالملاح أن يتحول من حيث المبدأ إلى مكان للصلاة الجماعية، وكل ما يتطلبه الأمر هو توفر النصاب، أي حضور عشرة أشخاص بالغين على الأقل (13 سنة فما فوق) داخل فضاء مغلق يتمحور حول "الهيكل" المستقبل للقدس، حيث تحفظ بعناية لفافات التوراة، و"طبا(ه)" منصة الوعظ التي يتناوب المصلون للصعود إليها للقيام بالتلاوة. بيد أن فهمنا لهذا التماهي قد يظل ناقصا إذا لم نقف عند جذب البيع لاهتمام المحيط الخارجي للملاح، باعتبار ما يقام بها من طقوس وشعائر وما يناط بها من أدوار اجتماعية وثقافية من جهة، وباعتبار الضغط الذي مارسه الفقهاء من جهة ثانية بغية تقنين بنائها أو ترميمها بل وتحديد موجبات هدمها، مع الحرص على تجنب ترك الحبل على الغارب لليهود للتقرير في أمرها حسب إرادتهم. جاء في كتاب التواريخ أن الشرعية نزعت عن ملاح المدينة إبان إحكام الزاوية الدلائية سيطرتها على فاس: بعد أن (سلم) "الولي الأمر للقائد بوبكر. وفي سنة 5413 لبدء الخليقة (1056هـ/1646م)، يوم الخامس عشر من شهر أيلول أرسل له يأمره بتحطيم البيع التي بالملاح... ويوم الثامن عشر من أيلول هدم، بسبب ذنوبنا الكثيرة والعظيمة البيت الكبير، بيعة التوشايم [الأصلين]. ويوم الثالث والعشرين من أيلول هدمت بيعة الميگوراشيم [المهجرين]".¹⁰² وقد جاء فيه أيضا أن الهدم والتدنيس قد نالا من ستة بيع هي بيعة ابن دنان وبيعة التازي وبيعة التلمود التوراة وبيعة إسحاق أبردليل وبيعة حايم عوزيل.¹⁰³ ويبدو كما يستشف من مرثية داود هارون بنحساين أن الأمر قد تكرر خلال سنتي حكم المولى اليزيد،

101. نفسه، 166.

102. أخبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 34.

103. نفسه، 36-37.

إذ عبر الشاعر اليهودي عن مرارته من استهداف البيع بالنهب والتدنيس، بل ومن تحويل بعض بناياتها أحيانا إلى إسطبلات.¹⁰⁴



صورة رقم 2: الميعارة البديلة التي خصصها المولى الحسن ليهود فاس بعد مصادرة أراضي مقبرتهم الأصلية المشرفة على القصر الملكي.

وفيما يتعلق بالمرافق العمومية، مكنتنا التحريات الميدانية التي قمنا بها في ملاح فاس الجديد من استنتاج غياب الحمامات عن لائحة المرافق النشيطة في خدمة ساكنته، وهو غياب يقدم حجة على مدى خضوع عمران الحي لضوابط الفقه الإسلامي، ويتسق مع النقاش الصاحب الذي أثير سنة 1252هـ/1836-1837م، بعد أن أحال المولى عبد الرحمن بن هشام (1822-1859) على الفقهاء طلبا رفعه إليه يهود المدينة يلتمسون فيه تمكينهم من إحداث حمام بملاحهم. إن ما يستشف من هذا النقاش الوارد ذكره في صفحات الإعلام بمن حل بمراكش وأغمت من الأعلام، لصاحبه القاضي عباس بن ابراهيم،¹⁰⁵ اختلاف الفقهاء حول رأيين:

104. David Kaufman, "Une élogie de David b. Aron Ibn Hossein sur les souffrances des juifs du Maroc en 1790," *Revue des Etudes Juives* (1898): 122.

105. عباس بن ابراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمت من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ج. 6 (الرباط: المطبعة الملكية، 2001)، 256-263.

- القول بالجواز، وهو رأي انفرد به الفقيه محمد العربي بن الهاشمي الزرهوني، قاضي صفرو ثم فاس إلى غاية سنة 1247هـ/1831م، والذي أصدر فتوى أيد بموجبها إرادة الإحداث، محتجا بأن الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص صحيح صريح في تحريمها، وبأن الحمام في حكم الفرن العمومي من ضروريات الحياة الحضرية، وأن من باب التناقض منع اليهود من بنائه مقابل السماح لهم بإحداث دور العبادة ومعاصر صنع الخمر.¹⁰⁶

- القول بعدم الجواز، وهو رأي عبر عنه بوضوح عبد الهادي بن عبد الله التهامي الحسني، قاضي المدينة في هذا العهد،¹⁰⁷ إذ جعل من منح اليهود حق إحداث حمام في حيهم خروجاً على عقد الذمة الناظم لاستقرارهم بين المسلمين، ومخالفة للذلة والمسكنة الواجب ضربها عليهم، في إحالة مباشرة على معيار الصغار، أحد المعايير الثلاثة المؤطرة عند الفقهاء لاستقرار أهل الذمة بدار الإسلام ووضعية دور عبادتهم. وعلى الرغم من إقرار القاضي بإحجام المرجعيات المالكية عن الإفتاء في هذه المسألة، وبعجزه بالتالي عن الإتيان بسند فقهي لتزكية رأيه، فقد أعمل القياس وأسهب في الاحتجاج بسلسلة من الفتاوى أدان مستصروها تشبه أهل الذمة بالمسلمين، وأنكروا عليهم تعلية المنازل ودور العبادة بالبنين وارتداء الثياب الرفيعة وارتياح المطايا النبيلة.¹⁰⁸

وقد ساند قاضي المدينة جميع فقهاء فاس ممن وقع استفتاءؤهم في النازلة، وهم عبد الواحد بن أحمد التاودي بن سودة وأحمد المرنيسي ومولاي عبد السلام بوغالب ومحمد الشفشاوني الحسني وبدر الدين الشريف الحسني ومحمد السنوسي وعبد القادر بن أحمد الكوهن وسيدي محمد بن عبد الرحمن. وتعميماً للفائدة اخترنا الوقوف عند اثنين منهم:

106. Paul Paquinon, "Quelques documents sur la condition des juifs au Maroc," *Revue du Monde Musulman* 9 (1909): 116-118.

107. عبد الهادي بن عبد الله التهامي الحسني العلوي (ت. 1272هـ/1855م)، من الفقهاء المغاربة المشهورين في عصره، أخذ عن مجموعة من شيوخ فاس، وتعاطى للإفتاء، كما تولى منصب القضاء بسجلامة ونواحيها وتولى قضاء الجماعة بفاس مرتين: المرة الأولى سنة (1240هـ/1884م)، وعزل، وتولاه مرة ثانية سنة (1247هـ/1831م) بعد عزل الفقيه التسولي، وبقي فيه إلى أن مات، وقد كان من المقربين لدى السلطان، خصوصاً وأنه صاهره بابتته، كما كان من بين الفقهاء الذين أفتوا بعدم قبول السلطان المغربي لبيعة أهل تلمسان بعد احتلال الجزائر، محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج. 1، 117-118.

108. Paquinon, "Quelques documents," 116-128.

- الفقيه عبد القادر بن أحمد الكوهن (ت. 1284هـ/1867م) الذي لا يتردد المؤرخون في إدراج عائلته ضمن عناصر البلديين بفاس، مما يكشف اقتحام هذه الفئة ذات الأصول اليهودية مجال السلطة الدينية، وتزويدها مدينة فاس بأسماء وازنة في ميادين العلم الشرعي والنسك والعبادة، وذلك على الرغم من النعوتات القذحية التي لاحقتها، من قبيل الإسلاميين والمهاجرين وحديثي العهد بالإسلام. وفي هذا الصدد، لا يسعنا إلا أن نذكر بأحد أكثر هذه الأسماء شيوعاً، وهو الفقيه عبد السلام جسوس الذي عارض تمليك العبيد وإدماجهم في جيش البخاري، مما جر عليه نقمة المولى إسماعيل الذي صادر أملاكه وحبسه إلى أن هلك في السجن سنة 1121هـ/1709م.

- الفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي ضمّن استدلاله تفصيلاً يسترعي الانتباه ويعبر عن عدم إلمام جزء من النخبة العالمة بفاس، خلال القرن التاسع عشر، بتفاصيل عن أساسيات عيش يهود مدينتهم وديانتهم. لقد أشار خطأً في فتواه إلى أن الحمام لا يعدو أن يكون محض كماليات لليهود ما دام عدم وجود ما يلزمهم بالاغتسال في ديانتهم حتى بعد مباشرتهم النساء.¹⁰⁹ والحقيقة أن "الميكفي"، الحمام الطقوسي البارد، فرض نفسه ضمن رقعة الأحياء اليهودية كمرفق أوجبته شعائر التطهر من النجاسة تطبيقاً لما تنص عليها الشريعة اليهودية،¹¹⁰ والأدوار المنوطة به التي تجسدها طقوس اعتناق الديانة اليهودية والاستعداد للسبت والصوم في الأعياد الدينية، وعادات التحضير للزفاف واطتسال النساء بعد الحيض والنفاس.¹¹¹ ولمزيد من التأكيد، نضيف نصاً تاريخياً كتب بفاس زمن المولى اليزيد، يكشف عن الأهمية التي يوليها اليهود لهذه الممارسة ذات الصبغة الدينية. إذ جاء في كتاب التواريخ بقلم أحد أحبار عائلة بن دنان ممن عايش معاناة أبناء طائفته في منفاهم بقصبة الشراردة ما يلي:

109. نفسه، 115-116.

110. كان الميكفي ملكية خاصة لا دخل للجماعة اليهودية في عائلته.

Deshen, *Les gens du Mellah*, 221.

111. حتى يكون الحمام شرعياً، يجب أن يحتوي على ماء يكفي لتغطية جسد امرأة متوسطة الحجم، ويجب أن يأتي الماء من عين أو واد، ولا يبيح الشرع لليهود السكنى في مكان لا يوجد فيه حمام طقوسي.

Haïm Zafrani, *Deux mille ans de vie juive au Maroc* (Paris: Eddif, 1998), 221.

”وماذا أقول عن مصيبة [الغطس] ”طيبة“ النساء، اللواتي
 كن يذهبن للغطس في النهر، وكان المسلمون يجتمعون لرؤية النساء
 عاريات، ولما رأيت هذا قمت وجمعت [بعض المتطوعين] وبنيت
 صهريجاً للماء يملأ بماء المطر ولما قل الماء، كنا نقوم بنقل الماء، وكن
 يغتسلن به.“¹¹²

وقد تحقق روجيه لوطورنو من وجود حمامين طقوسيين باردين بدرج
 الفوقي بملاح فاس الجديد يصعب تحديد موقعهما في الوقت الراهن.¹¹³ غير أن
 الاكتشاف المثير للانتباه هو العثور في سنة 1997 على ”ميكثي“ بمحاذاة الجدار
 الشرقي لبيعة شلومو بن دنان بملاح فاس، إذ كشفت الحفريات التي واكبت أعمال
 ترميم البناية المحتضنة للبيعة عن وجود قبو، أسفل منصة الوعظ، يؤدي عبر اثني
 عشر درجاً إلى حوض صغير مربع الشكل يصله الماء عبر مجرى تحت أرضي، مما
 يحمل على الاعتقاد باستغلاله كحمام طقوسي بارد.

وبالعودة إلى تطور الأحداث، فقد أثار تغريد الفقيه الزرهوني خارج
 السرب نقمة فقهاء فاس، وفي طليعتهم القاضي علي بن عبد السلام التسولي
 (ت. 1258هـ/1842م)، القريب من دوائر القرار،¹¹⁴ والذي لم يتردد في التعقيب
 عليه بأسلوب لاذع، متهما إياه بالجهل والحمق، ووصف فتواه بأنها متهافة ومخالفة
 جملة وتفصيلاً للأسس الشرعية الثابتة والأدلة الفقهية الضابطة.¹¹⁵ ولم يقف الأمر
 عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى إبعاد الفقيه الزرهوني إلى الصويرة، حيث قضى فيها
 آخر أيام حياته.¹¹⁶ أما مشروع الحمام موضوع النزاع، فقد احتكم السلطان في نهاية
 المطاف إلى تفعيل الموقف الجماعي المناوئ لإنشائه. ثم جدد يهود فاس مسعاهم سنة
 1898 لدى المولى عبد العزيز لكن دون جدوى، وهي النتيجة ذاتها التي لقيها، قبل
 ذلك في سنة 1865 طلب مماثل تقدم به أحد أثرياء يهود الصويرة بمساندة من قنصل
 فرنسا المعتمد بالمدينة.¹¹⁷

112. أحبار من عائلة ابن دنان، كتاب التواريخ، 92.

113. لوطورنو، فاس قبل الحماية، 273.

114. تبنى المولى عبد الرحمن بن هشام فتواه التي أجاز فيه قبول بيعة أهل الجزائر لما وفدوا طالبين ذلك، كما كلف
 بالإجابة عن الأسئلة التي بعثها الأمير عبد القادر الجزائري، داود، تاريخ تطوان، ج. 2، 233.

115. Paquinon, "Quelques documents," 118-119.

116. ابن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش، ج. 6، 260.

117. مينة المغاري، مدينة موغادور السويرة: دراسة تاريخية وأثرية (الرباط: دار أبي رقراق، 2006)، 327.

وتقع الميعة، أي المقبرة، داخل أسوار فاس الجديد في الجهة الجنوبية الشرقية منها، لكن الحرص كان شديداً على إحاطتها بفواصل جداري يعزلها عن دور الملاح السكنية. وتتوفر الجماعة اليهودية بفاس على مقبرة إضافية خارج باب الكيسة يدفن فيها من قضى نحبه خارج الملاح حتى ولو كان من بين المقيمين فيه. والراجح أن الغاية من ذلك هي ضمان السلامة الصحية بأحياء اليهود، وتجنب تفشي الأوبئة والأمراض بين ظهرانيهم، خاصة وأنها فتكت بأعداد كبيرة منهم في مناسبات كثيرة.¹¹⁸

ولما بدت المقبرة عند أتباع الديانة اليهودية بأنها حاجة ماسة لا يستقيم عيشهم بمدينة من المدن دون تليتها،¹¹⁹ فلا عجب إذا ما أثار المس بحرماتها امتعاض يهود فاس وشعورهم بالغبن والهوان. وقد أجاد التعبير عن هذا الإحساس أحد الأخبار من عائلة ابن دنان، عاصر واقعة اعتداء جنود المولى اليزيد على ميعة فاس حيث أمروا بحفر المقبرة اليهودية "ليستعمل رملها وحجارتها التي على القبور في بناء جامع وصومعة في الملاح"،¹²⁰ إذ كتب ما يلي:

"ونشوا ما لا يمكن عده من قبور الصديقين والفضلاء وأعيننا تنظر. كنا نذهب كل سبتين (خمسة عشر يوماً) وكل شهر مع قائد القصبية إلى المقبرة، وكنا نجمع العظام والجماجم وأيدي وأرجل الموتى المبعثرة... وأعدنا حفرة كبيرة في المكان المعروف بالكيسة ودفنا تلك العظام هناك... وعدنا من المقبرة المذكورة إلى القصبية، وأحياناً حدادا كبيرا وبكيننا بكاء كثيراً على كل الشر الذي حل بنا."¹²¹

118. انظر: محمد أمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992).

119. كان إلحاح اليهود على تملك أرض لإقبار موتاهم شديداً، فعلى سبيل المثال تضمنت الرسالة التي بعثها أبو حسون بودميعة إلى قاضي مراكش عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، لاستفتائه في أمر بناء بيعة بإبليغ، ما يفصح عن ذلك: "إنهم طلبوا أن تترك بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لأن مسافة ما بينهم وبين أفران التي هي مقبرة قديمة بعيدة". وقد استجيب لهذا المطلب ومكن اليهود من مقبرة نالت الشهرة بفضل الباحثين بول باسكون وزميله دانييل شروتير اللذين جعلوا من شواهد الجنازات وثائق لدراسة التطور الديموغرافي للسكان اليهودية بإبليغ من سنة 1751 إلى سنة 1955. الناصري، الاستقصا، ج. 6، 81.

Paul Pascon et Daniel Schroter, "Le cimetière Juif d'Iligh (1751-1955), étude des épitaphes comme document d'histoire sociale," *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* 34 (1982): 39-62.

120. نفسه، 87.

121. نفسه، 83-84.

وبعيدا عن آراء بعض المؤرخين الأجانب ممن رأوا في هذه الواقعة حدثا عرضيا لا يعدو أن يكون دورة من دورات العنف التي اكتوى بلهبها اليهود على عهد المولى اليزيد،¹²² فإننا نحسبها من تجليات التطور العمراني الذي شهدته مدينة فاس خلال العهد العلوي، وتعبيرا عن إرهابات الصراع الذي احتد حول الوعاء العقاري المحتضن لميعة المدينة، قرنا من الزمن بعد حدوث هذه الواقعة. لقد نقل عبد الرحمن بن زيدان قرار تحويل المولى الحسن في سنة 1312هـ/1894م مقبرة الملاح من مكانها الأصلي بعد أن تداخلت أراضيها مع القصر الملكي الذي امتدت ملحقاته، من مشاور ولساتين، في اتجاه الغرب والجنوب. وترتب عن هذا أن تحول جزء من أرض المقبرة القديمة إلى ساحة تطل على مدخل القصر الملكي (باب المشور)،¹²³ وأن خصصت لليهود مقبرة بديلة جنوبي الملاح بمحاذاة السور المريني المزدوج الذي انهدمت أجزاء كثيرة منه.¹²⁴ ثم جرى نقل رفات موتى يهود المدينة إلى هذه الميعة الجديدة،¹²⁵ ومن أشهرهم الربيين إلباهو السرفاتي ويهودا بن عطار والصالحة سليكة هاتشويل الذين تحولت قبورهم جميعا إلى مزارات تقصد للتبرك والتماس قضاء الحاجات.¹²⁶ وكيفما كان الأمر، تذكرنا هذه الواقعة وتوابعها بأخرى شبيهة لها دارت أطوارها في مراكش على عهد السعديين، حين استلزم بناء جامع الشرفاء بحومة المواسين مصادرة أرض مقبرة في ملكية يهود المدينة، فكان ذلك إيذانا بميلاد الملاح الثاني بالمغرب.¹²⁷

122. شهر، "فتنة يهود تطوان"، 80.

123. Roger Le Tourneau, *La vie quotidienne à Fès en 1900* (Paris: Hachette, 1965), 25.

124. في جزء من بستان آمنة جرى تجديده زمن المولى عبد الرحمن بن هشام. جاء في الحلل البهية: "ومن آثاره بحضرة فاس تجديد بستان آمنة المرينية، وكان خرابا تألفه الوحوش بعد أن كان في الدولة المرينية على هيئة بهية، فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وفيها مقاعدهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى،" محمد المشرفي، ج. 2، 89.

125. حظيت هذه القضية بعظيم الاهتمام والتتبع من قبل يهود المغرب، ولا سيما أبناء ملاح تطوان.

Sarah Leibovicé, *Chronique des Juifs de Tétouan: 1860-1896* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1984), 115.

126. Louis Voinot, *Pèlerinages judéo-musulmans du Maroc* (Paris: Éditions Larose, 1948), 50.

127. بشأن الحياة في ملاح مراكش وعلاقات اليهود بالمسلمين في المدينة الحمراء، انظر:

Emily Gotterich, *The Mellah of Marrakesh: Jewish and Muslim Space in Morocco's Red City* (Bloomington: Indiana university press, 2007).

خاتمة

خلص المقال إلى أن أهواء السياسة تنازعت تأسيس ملاح فاس، إذ تآتى إنشاؤه أيام بني مرين بغية تجميع يهود المدينة داخل حيز ينفردون بالإقامة داخله دون سواهم، متمتعين بحرية تدبير شؤونهم، ومتفادين ما ينتج عن الاختلاط بالغالبية المسلمة من حساسيات وتوترات. كما تم تشييده على أرض عمومية، عبئت من الرصيد العقاري المملوك للدولة، تبعد نسبيًا عن مركز المدينة-القرويين- بما يمثله من ثقل ديني واقتصادي وسكاني، وإن جاور بنايات القصر السلطاني، مقر إدارة الحكم وإقامة السلطان وحاشيته.

وإلى جانب الإرادة السياسية، كان لبنود عقد الذمة أثر واضح في استلهاهم طبيعة العمران المعمول به داخل الملاح. لقد كان من الثوابت في تصميمه حضور الأسوار لمساهمتها في توفير الحماية ورسم خطوط التماس مع محيطه العمراني بفاس الجديد. وكذلك الشأن بالنسبة للباب، فقد وضعت تدابير لتأمينه، منها الحرص على إغلاقه عند حلول الليل وأيام السبت والأعياد الدينية اليهودية، ومنها نصب حرس التزمت الجماعة اليهودية بالإنفاق عليه، وتكفلت السلطة بتسليحه بالعصي والبنادق أيام الفتن وعند تفشي الفوضى وانعدام الأمن. كما تميز الملاح بحضور عناصر معمارية، من قبيل الحمام الطقوسي البارد (الميكثي) والبيعة. وقد احتلت هذه الأخيرة في أحيان عديدة أحد الطوابق أو الغرف، إخفاء لما يقام بداخلها من شعائر وطقوس، ولما تمارسه من وظائف قضائية وتديرية وتربوية. ولا يفوتنا في هذا السياق أن نذكر بحظر بناء الحمام العمومي بداخله وغيابه عن لائحة المرافق العمومية المحدثة لخدمة ساكنة الملاح، وقد أوردنا بالتفصيل كيف عارض فقهاء فاس منح اليهود حق إحداث حمام عمومي في حيهم أيام المولى عبد الرحمن بن هشام، بدعوى إخلاله بالضوابط الشرعية.

هذا، وتتهدد الملاح في الزمن الراهن أخطار شتى قد تؤدى، في حال تفاقمها، إلى تلاشي صفحات أصيلة وعريقة من هوية فاس العتيقة. بيد أن بريقا من الأمل يلوح في الأفق بعد مشاريع الترميم والحفاظ التي أعادت الحياة إلى أبرز بيع المدينة في السنوات الأخيرة (صلاة شلومو بن دنان 1997 وصلاة الفاسيين

128، (2014) إذ من شأن هذه المشاريع أن تعطي زخما قويا للاهتمام بالإرث اليهودي، باعتباره رافدا من روافد الثقافة المغربية التي جعلت من تحفيز قيم التنوع والعيش المشترك مصدر غناها.

Bibliographie

- Aḥbār min 'Āilat Ibn Dannān. *Kitāb al-Tawārīkh aw Tārīkh Madīnat Fās*. Tarjamat Abdelaziz Shahbar. Tiṭwān: Manshūrāt Jam'īyyat Tiṭāwan Asmīr, 2002.
- Allouche Idris S., "Un plan de canalisations de Fès au temps de Mawlay Ismail d'après un texte inédit avec une étude succincte sur la corporation des *Kwadsiya*." *Hespéris XVIII* (1934): 49-63.
- Anonyme. *Kitāb al-'Istibṣār fī 'Ajā'ibi al-'Amṣār*. Taḥqīq Saad Zaghloul, al-Dār al-Baydā': Dār al-Nashr al-Maghribiya, 1985.
- Anonyme. *Qaḍīyyat al-Muhājirīn al-Musamūn al-Yawm bi al-Baldīyyīn*. Tahqīq Mohammed Fatha. Al-Ribat: Dār Abī Raqrāq, 2004.
- Bakchine-Dumot, Simonne. "Une inscription tumulaire hébraïque du Touat." *Revue des Etudes Juives* (1979): 143-146.
- al-Bakrī, Abū 'Ubayd Allāh. *Kitāb al-Masālik wa al-Mamālik*. Annoté par Adrien Loven et André Viri, Tunis: Maison Arabe du Livre, 1992.
- al-Bazzāz, Muḥammad. *Tārīkh al-Awbi'a wa al-Majāāt bi al-Maghrib fī al-Qarnayn al-Thāmin wa al-Tāssī 'Aṣhar*. Al-Ribāt: Manchūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-insāniyya, 1992.
- Bressolette, Henri et Delarozière, Jean. "Fès Jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XX^{ème} siècle." *Hespéris-Tamuda XX-XXI* (1982-83): 245-319.
- Bressolette, Henri. "Naissance et évolution d'une ville marocaine." *Hespéris-Tamuda IV* (1963): 227-229.
- Brunshvig, Robert. *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^{ème} siècle*. Abdalbasit b. Kalil et Adorne. Paris: Éditions Larose, 1936.
- Caillé, Jacques. *La ville de Rabat jusqu'au protectorat français*. Paris: Éditions Van Oest, 1949.
- Cambazard-Amahan, Catherine. *Le décor sur bois dans l'architecture de Fès*. Paris: Éditions du CNRS, 1989.

128. بعد ترميم صلاتي شاوول بن دنان والفاسيين، يتركز الاهتمام على صلاة ميمون مانصانو، إذ تعكف مؤسسة التراث اليهودي المغربي حاليا على إعداد مشروع لإعادة تأهيل وترميم البيعة، وإدماجها ضمن المسار السياحي لمدينة فاس العتيقة، وذلك بشراكة مع منظمة اليونيسكو ووزارة الثقافة والمؤسسات اليهودية بالمغرب.

- Corcos, David. "Les Juifs du Maroc et leurs Mellahs." In *Studies in the history of the Jews of Morocco*, David Corcos ed., 64-130. Jérusalem: Rubin Mass, 1976.
- Dāwūd, Muḥammad. *Tārīkh Tiṭwān*. Tiṭwān: Mahdiya, 1962.
- Deshen, Shlomo. *Les gens du Mellah*, traduit par Janine Gdalia. Paris: Albin Michel, 1991.
- al-Ḍu‘ayyif, Muḥammad. *Tārīkh al-Ḍu‘ayyif al-Ribāṭi*. Taḥqīq Moḥammed Bouzidi Chikhi. Al-Dār al-Baydā’: Dār al-Thaqāfa, 1998.
- al-Dukkālī al-Salāwi, Muḥammad. *Al-Ithāf al-Wajīz “Tārīkh al-‘Adwatayn.”* Salā: al-Khizāna Ṣbiḥiyya, 1980.
- El-Mghārī, Mīna. *Madīnat Mugādūr al-Sawīra: Dirāsa Tārīkhiyya wa Athariyya*. Al-Ribāt: Dār Abī Raqrāq, 2006.
- Ettahiri Saleh, Ahmed. "A l’aube de la ville de Fès. Découvertes sous la mosquée al-Qarawiyyin." *Dossiers de l’Archéologie* 365 (2014): 42-49.
- Filli, Abdallah. "La céramique mérinide de la Medersa al- Bu’inaniya de Fès." *Transfretana* 4 (2000): 259-289.
- Garcia-Arenal, Mercedes "Les *bildiyyin* de Fès, un groupe de néo-musulmans d’origine juive." *Studia Islamica* 66 (1987): 113-143.
- Gaudefroy-Demombynes, Maurice. "Marocain mellah." *Journal Asiatique*, (1914): 651-658.
- al-Ghrayab, Muḥammad. *Mujtama’ Yahūd al-Maghrib al-Aqṣā al-Waṣīt: Dirāsa Tārīkhiya wa Ijtimā’iyya*. Al-Ribat: Rabat Net, 2012.
- Gottreich, Emily. *The Mellah of Marrakesh: Jewish and Muslim Space in Morocco’s Red City*. Bloomington: Indiana University Press, 2007.
- Goulven, Joseph. "Esquisse historique sur les Mellahs de Rabat-Salé." *Bulletin de la Société de Géographie commerciale de Paris* (1922): 11-41.
- al-Ḥabbāni, Muḥammad. "al-Asbāb wa al-Asāfīr al-Murtabiṭa bi Ta’sīs al-Mudun al-Islāmiyya bi al-Maghrib." In *al-Madīna fī Tārīkh al-Maghrib*, colloque organisé à Casablanca du 24 au 26 novembre 1988, 70-77. Al-Dār al-Baydā’: Manchūrāt kulliyat al-‘ādāb wa al-‘ulūm al-insāniyya, Ben Msik, 1990.
- Ḥajji, Muḥammad. "Wathīqatān Jadīdatān Ḥawla Mulābasāt Ibrām Mu‘āhadat al-Ḥimāya." In *al-Tārīkh wa al-Fiqh: ‘Amāl Muḥdāt ilā Muḥammad*

- al-Mannūnī*, 55-83. Al-Ribāt: Manchūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya 2002.
- _____. *Al-Zāwiya al-Dilā'iyya wa Dawruhā al-Dīnī wa al-'Ilmī wa al-Siyyāsi*. Al-Dār al-Baydā': Matba'at al-Najāh al-Jadīda, 1988.
- Ḥarītānī, Sulaymān. *Al-Khamra wa Dhāhirat Intishār al-Ḥānāt wa Majālis al-Sharāb fi al-Mujtamā' al-'Arabī al-Islāmī*. Dimachq: Dār al-Ḥaṣād, 1996.
- Hubert, Jacques. *Les journées sanglantes de Fès*. Paris: Librairie Chapelot, 1913.
- Ibn abī Zar', 'Alī. *Al-Anīs al-Muṭrib bi Rawḍ al-Qirṭās fi Akhbār Mulūk al-Maghrib wa Tārīkh Madīnat Fās*. Taḥqīq Abdelouhab Benmansour. Al-Ribāt: al-Matba'a al-Malakiyya, 1999.
- _____. *Al-Dhakhīra al-Ṣaniyya fi Tārīkh al-Dawla al-Marīniyya*. Taḥqīq Abdelouhab Benmansour. Al-Ribāt: Dār al-Mansūr, 1972.
- Ibn al-Qādi, Aḥmad. *Durrat al-Ḥijāl fi Asma'i al-Rijāl*. Al-Qāhira: Dār al-Thurāt, S. D.
- Ibn al-Zayyāt, Yūssuf. *Al-Tashawuf ilā Rijāl al-Taṣawuf wa Akhbār abī al-'Abbās al-Ṣabṭī*. Taḥqīq Ahmed Taoufiq. Al-Ribāt: Manchūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, 1997.
- Ibn Battouta. *Voyages d'Ibn Battūta*. Traduit par Charles Defrémery et Beniamino Raffaello Sanguinetti. Paris: Éditions Anthropos, 1979.
- Ibn Brāhim al-Samlāli, 'Abbās. *Al-Ilām bi Man Ḥalla bi Murrākush wa Aghmāt Mina al-'Alām*. Taḥqīq Abdelouhab Benmansour. Al-Ribāt: al-Matba'a al-Malakiyya, 2001.
- Ibn Faḍl Allāh al-'Umarī, Shihāb al-dīn. *Masālik al-Abṣār fi Mamālik al-Amsār*. Taḥqīq Mohammed Abdalkader et al. Al 'Ain: Zayed Center for Heritage and History, 2001.
- Ibn 'Idāri, Muḥammad. *Kitāb al-Bayān al Mu'rib fi Akhbār al-Andalus wa al-Maghrib*. Bayrūth: Dār al-Thaqāfa, S. D.
- Ibn Khaldūn, 'Abd Raḥmān. *Kitāb al-'Ibar wa Diwān al-Mubtada' wa al-Khabar fi Ayyām al-'Arab wa al-'Ajam wa al-Barbar wa Man 'Āsharahum Min Dhawī al-Ṣulṭān al-Akbar*. Bayrūt: Dār al Kitāb al-Lubnānī, 1959.
- Ibn Marzūq, Muḥammad. *Al-Musnad al-Ṣaḥīḥ fi Ma'āthir wa Maḥāsin Mawlānā abī al-Ḥasan*. Annoté par Maria J. Viguera. Alger: Société Nationale d'Édition et de Distribution, 1981.

- Ibn Zaydān, ‘Abd Raḥmān. *Al-‘Izz wa al-Ṣawla fī Ma‘ālimi Nuzum al-Dawla*. Al-Ribāt: al-Matba‘a al-Malakiyya, 1962.
- _____. *Al-Manza‘ al-Latīf fī Mafākhīr al-Mawlā Ismā‘īl*. Tahqīq Abdelhadi Tazi. Al-Ribat: Idiyāl, 1993.
- al-Ifrānī, Muḥammad. *Nuzhat al-Ḥādī fī Akhbār Mulūk al-Qarn al-Ḥādī*. Tahqīq Abdeletif Chadli. Al-Dār al-Baydā’: Matba‘at al-Najāḥ al-Jadīda, 1988.
- al-Jaznā’ī, ‘Ali. *Jany Zahrat al-‘Ās fī Bināi’ Madīnat Fās*. Al-Ribāt: Dār al-Mansūr, 1977.
- Jehel, Georges et Philippe Racinet, Philippe. *La ville médiévale de l’Occident chrétien à l’Orient musulman V^{ème}-XV^{ème} siècle*. Paris: Armand Colin, 1996.
- Kably, Mohammed. *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*. Paris: Maisonneuve & Larose, 1986.
- al-Kattānī, Muḥammad. *Salwat al-Anfās wa Muḥādathat al-Akyās Biman Uqbira Mina al-Ulamā’ wa al-Ṣulahā’ bi Fās*. Tahqīq Mohammed al-Kettani wa ākhroun. Al-Dār al-Baydā’: Dār al-Thaqāfa, 2004.
- Kaufman, David. “Une élégie de David b. Aron Ibn Hossein sur les souffrances des juifs du Maroc en 1790.” *Revue des Etudes Juives* (1898):120-126 .
- Kayslering, Meyer. “Une persécution des juifs à Fez.” *Revue des Etudes Juives* (1899): 315-317.
- Kenbib, Mohammed. “Juifs dans une cité sainte de l’Islam.” In *Fès Médiévale: entre légende et histoire, un carrefour de l’Orient à l’apogée d’un rêve*, dir. Mohamed Mezzine, 166-175. Paris: Éditions Autrement, 1992.
- al-Khamlihi, Abdelaziz. “Ḥawla mas’alat binā’ al-mallāḥāt bi al-Maghrib.” *Dār al-Niyāba*, 4, (14), (1987): 21-28/5, (19-20) (1988): 30-41.
- Koehler, Père Henri. “La Kasba saadienne d’après un plan manuscrit de 1585.” *Hespéris*, XXVII, (1940): 1-21.
- Le Tourneau, Roger. *Fās Qabla al-Ḥimāya*. Tarjamat Mohammed Hajji wa Mohammed Lakhdar. Bayrūt: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1992.
- _____. *La vie quotidienne à Fès en 1900*. Paris: Hachette, 1965.
- _____. “Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour au royaume de Fès 1540-1541.” *Hespéris XIX* (1934): 45-63.
- Leibovicé, Sarah. *Chronique des Juifs de Tétouan: 1860-1896*. Paris: Maisonneuve et Larose, 1984.

- Lévy, Simon. "Ḥāra et Mallah: les mots, l'histoire et l'institution (toponyme et histoire)." In *Histoire et linguistique*, Actes de la table ronde déroulée à Marrakech de 25 à 26 Mai 1990, Abdelahad Sebti éd. 41-50. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, 1992.
- al-Mashrafī, Muḥammad. *Al-Ḥulal al-Bahiyya fī Mulūk al-Dawla al-Bahiyya wa 'Addi Ba'di Mafākhiriḥā al-Bahiyya*. Taḥqīq Idriss Bouhlila. Al-Ribāt: Dār Abī Raqrāq, 2015.
- Massignon, Louis. *Le Maroc dans les premières années du XVI^{ème} siècle (Tableau géographique d'après Léon L'Africain)*. Alger: pub. Mémoire de la Société Historique Algérienne, 1906.
- Mercier, Louis. "Souvenirs des massacres de Fez." *France-Maroc* (1916): 11-17.
- Mezzine, Mohammed. "Le sacré dans une cité maghrébine le cas de Fès au temps du maraboutisme." *Revue de la Faculté des Lettres et Sciences Humaine Dhar el Mahraz Fès* 9 (1994): 45-53.
- Michaux-Bellaire, Edouard. "La Ghelsa et le Gza." *Revue du Monde Musulman* 23 (1911): 197-248.
- Miller, Susan Gilson et al., "Inscribing Minority Space in the Islamic City: The Jewish Quarter of Fez (1438-1912)." *Journal of the Society of Architectural Historians* 3 (2001): 310-327.
- Miller, Susan Gilson. "The Mellah of Fez: Reflections on the Spatial Turn in Moroccan Jewish History." In *Jewish Topographies; Visions of Space, Traditions of Place*. Julia Brauch, Anna Lipphardt and Alexandra Nocke ed. 101-119. London: Ashgate, 2008.
- Miyyāra, Muḥammad. *Naṣīḥat al-Mughṭarīn wa Kifāyat al-Mughṭraribīn*. Taḥqīq Mohammed al-Ghraib. Al-Ribāt: Rabat Net, 2013.
- al-Nāṣiri, Aḥmed ibn Khālīd. *Kitāb al-Istiḳṣā li Akhbār Duwal al-Maghrib al-'Aqṣa*. Al-Dār al-Baydā': Dār al-Kitāb, 1956.
- Paquinon, Paul. "Quelques documents sur la condition des juifs au Maroc." *Revue du Monde Musulman* 9 (1909): 112-123.
- Pascon, Paul et Schroter, Daniel. "Le cimetière Juif d'Illigh (1751-1955), étude des épitaphes comme document d'histoire sociale." *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* 34 (1982): 39-62.
- Prosper, Ricard. "L'horloge de la medersa Bou Inania." *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord* (1924): 1-7

- al-Qādirī, Muḥammad. *Nashr al-Mathānī li Ahl al-Qarn al-Ḥadi ‘Ashar wa al-Thānī*. Taḥqīq Mohammed Hajji et Ahmed Taoufiq. Bayrūt: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1996.
- Rguig, Hicham. “Quand Fès inventait le Mellah.” In *Maroc Médiéval, un empire de l’Afrique à l’Espagne. Catalogue de l’exposition présentée au Musée du Louvre* du 17 octobre 2014 au 19 janvier 2015. Sous la direction de Yannick Lintz et Bahija Simou. 452-454. Paris: Musée du Louvre, 2014.
- Schwab, Moïse. “Deux inscriptions hébraïques.” *Revue des Etudes Juives* (1904): 137-139.
- Semach, Y. D., “Une chronique juive de Fès: le Yahas Fès de Ribbi Abner Hassarfaty.” *Hespéris XIX* (1934): 79-94.
- Shahbar, ‘Abdalazīz. “Fitnat Yahūd Tiṭwān ‘Alā ‘Ahd al-Mawlā al-Yazīd Min khilāl al-Maṣādir al-‘Ibrāniya.” In *Tiṭwān Khilāl al-Qarn al-Thāmin ‘Ashar 1727-1822*, 73-80. Tiṭwān: s. éd., 1994.
- al-Tazi, Abdelhadi. “Ibn Maymūn bi Fās.” In *Un trait d’union entre l’Orient et l’Occident, al-Ghazzali et Ibn Maimoun*, 205-213. Publication de l’Académie du Royaume du Maroc, Rabat, 1986.
- Terrasse, Henri. *La mosquée al-Qarwiyyin à Fès*. Paris: éd. Klincksieck, 1968.
- Toledano, Joseph. *L’esprit du Mellah*. Jérusalem: Éditions Ramstel, 1986.
- Voinot, Louis. *Pélerinages judéo-musulmans du Maroc*. Paris: Éditions Larose, 1948.
- al-Wancharīsi, Aḥmad. *Al-Mīyār al-Múrib wa al-Jāmi‘ al-Mughrib ‘an Fatāwī ‘Ulamā’ Ahl Iifrīqiyya wa al-Andalus wa al-Maghrib*. Taḥqīq Mohammed Hajji et al., Al-Ribāt: Manshūrāt wizārat al awqāf wa al-shu‘ūn al-islāmiyya, 1981.
- al-Wazzān, Ḥasan. *Wasf Ifrīqiyyā*. Tarjamat Mohammed Hajji wa Mohammed Lakhdar. Al-Dār al-Baydā’: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1983.
- Zafrani, Haïm. *Deux mille ans de vie juive au Maroc*. Paris: Eddif, Paris, 1998.
- al-Zu‘frānī, Ḥayyīm. *‘Alf Sana Min Ḥayāt al-Yahūd bi al-Maghrib, Tārīkh Thaḳāfa, Dīn*. Tarjamat ‘Ahmad Shaḥlān wa ‘Abd al-Ghaniy ‘Abū al-‘Azam. Al-Dār al-Baydā’: Dār Qorṭoba, 1987.

ملخص:

*Min ḥūmat fandaq al-yahūdi ilā mallāḥ Fās al-jadīd.
Tajalliyyāt al-ḥudūr al-yahūdī fī al-mashhad al-'umrānī li-madīnat Fās.*

من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد
تجليات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس

يسعى هذا المقال إلى الوقوف بالدراسة عند الحيز العمراني الذي شغله اليهود في حاضرة من حجم فاس، في محاولة للقطع قدر المستطاع مع التمثلات الجاهزة التي من خلالها تعالج، بل وتختزل معظم قضايا وإشكالات تاريخ اليهود بالمغرب وتجسيدها لهذا الطرح، التزمنا بمقاربة تروم الجمع بين رصد عراقية الاستقرار اليهودي بالمدينة، عبر النباش في ذاكرتها عن جذوره التاريخية، وبين التحري حول هوية العمران السائد بالملاح المحدث بفاس الجديد أيام بني مرين، وذلك من خلال محاولة تفكيك جوانب من بنية هذا الحي ذي الخصوصية الثقافية والدينية، وفهم استعمالات الأرض فيه، فضلا عن ملامسة تفاعله مع بيئته العمرانية، وإبراز المقاصد المرعية في تخطيطه.

الكلمات المفتاحية: يهود المغرب، فاس، فاس الجديد، الملاح، عقد الذمة، عمران المدينة، حومة فندق اليهودي، البيع، الصلوات، الميكثي، الميعارة.

Résumé: Formes et aspects de la présence juive au sein de l'espace urbain de la ville de Fès.

Cet article traite du délicat problème que pose l'inscription spatiale juive dans une grande cité comme Fès, en vue de devancer les assimilations hâtives par lesquelles s'interprète l'ensemble des problématiques liées à l'histoire des juifs du Maroc. Nous avons retenu une approche alliant la mise en évidence de l'ancienne présence juive à Fès et l'interrogation sur l'identité urbanistique du Mellah: la morphologie de ce quartier ethniquement et culturellement particulier, les éléments physiques qui le constituent, les multiples interactions qui le relient avec son environnement, et les principes applicables en matière de son édification.

Mots clés: Juifs du Maroc, Fès, Fès al-Jadid, mellah, *dhimma*, urbanisme, ḥumat fandaq lihudi, synagogues, cimetière.

Abstracts: Forms and Aspects of the Jewish Presence in the Urban Space of the City of Fez.

This article deals with the delicate problem posed by the Jewish spatial inscription in a large city like Fez, with a view to anticipating the hasty assimilations by which all the problems related to the history of the Jews of Morocco are interpreted. We adopted an approach combining the identification of the ancient Jewish presence in Fez and the questioning of the urban identity of the Mellah: the morphology of this ethnically and culturally particular neighborhood, the physical elements that constitute it, the multiple interactions which connect it with its environment, and the principles applicable in its edification.

Key words: Moroccan Jews, Fès, new Fès, mellah, *dhimma*, urbanism, ḥumat fandaq lihudi, synagogues, cemetery.

Resumen: Las formas y aspectos de la presencia judía en el espacio urbano de la ciudad de Fez.

En este artículo se aborda el delicado problema de la entrada de espacio judía en una gran ciudad como Fez, para anticipar la asimilación precipitada por la que interpreta todos los temas relacionados con la historia de los Judíos de Marruecos. Elegimos un enfoque que combine la demostración de la antigua presencia judía en Fez y el cuestionamiento de la identidad urbana de la Mellah: la morfología de esta zona étnica y culturalmente elementos específicos, físicos que constituyen las múltiples interacciones que se conectan con su entorno, así como los principios para su construcción.

Palabras claves: Judíos marroquíes, Fez, nueva Fès, mellah, *dhimma*, urbanismo, ḥumat fandaq lihudi, sinagogas, cementerio.